رأس الديك الأحمر

أحمد الخميسى

قصص

رأس الديك الأحمر

*

رأس الديك الأحمر
قصص
الطبعة الأولي
رقم الإيداع
الترقيم الدولي ٩٧٨-
تصميم الغلاف ستوديو ٣٠٦
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
٣/١ شارع اللاسلكي – المعادي الجديدة – ١١٧٤٢ – القاهرة.
تليفـــــون ٠٢٠٢٢٥١٩٤٨٠ + –
اليكروني info@kotobkhan.com
موقع اليكروني www.kotobkhan.com

رأس الديك الأحمر

قصص

أحمد الخميسي

الكتاب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلي أصدقائي وأهلي وإخوتي حقا محمد المخزنجي وعلاء الديب وأبو بكر يوسف وشوقي عقل.

أحمد الخميسي

المحتويات

المقدمة الكاتب والكتابة بقلم إبراهيم حمزة ٩
رأس الديك الأحمر ١٩
قائمة النسيان ٢٥
ومض..... ٣٣
آخر مرة ٥٧
جئت أنت ٦٣
أحب "ساراماجو ٧١
الحب والفولاذ ٧٧
شباك..... ٨٧
جلباب ازرق ٩٣
غمغمة ١ ١
تاريخ فقاعة ١٠٣
بلدنا يا مرجريت ١١٥
الطابق السابع ١٢١
رحمة ١٢٧
صعيدي ١٣٩
واجب ١٤٥

الكاتب والكتابة

بقلم إبراهيم حمزة

ستجد نفسك متورطا فى محبة هذا الكاتب، ستجد نفسك أمام روح طيبة أصيلة تدافع عما تراه أخلاقيا نبيلا، بسيطا عميقا فى تفاعله مع مهنته الوحيدة التى يجيدها: الكتابة. يتقلب كغيره على جمر الجدوى من ذلك، وقيمة الإبداع فى مجتمعه، ولذا فقد هجر الكتابة أعواما، وعاد إليها، لأنها العمل الذى يتقنه ويحبه.

"رأس الديك الأحمر هي المجموعة القصصية الرابعة للقاص والكاتب الصحفي المعروف أحمد الخميسي (١٩٤٨). مجموعته الأولى صدرت وهو في التاسعة عشرة – عن دار الكاتب العربي عام ١٩٦٧ بعنوان "الأحلام. الطيور. الكرنفال" لكن البداية كانت قبل ذلك.

يقول أحمد الخميسي في مقال[1] عن والده "ذهبت مع أمي وأنا صبي في السابعة لزيارة والدي في المعتقل. كان ذلك عام ١٩٥٥ جلسنا في انتظار رؤيته على دكة خشبية بغرفة مأمور السجن. دخل علينا ومعصم يده مربوط بقيد حديدي إلى يد شاويش. وما أن رآني حتى ضحك ورفع يده لأعلى يخاطبني: انظر. لقد قمت بسجن هذا الرجل لأنه شقي! جلس بجواري على الدكة وأخذ يمعن النظر في مبتسما يستوثق إن كانت حكايته قد انطوت علي أم لا أسعفتني طفولتي على قلة سنواتها فابتسمت له بدوري لأوحي له أنني صدقت أنه حر طليق وأن الشاويش

العجوز في ردائه الرسمي هو المحبوس! من ابتسامته، وابتسامتي المشبعتين بالحب وبالمكر الحاني برزت في رأسي لأول مرة فكرة أول قصة في حياتي. خططت لكتابتها و لم أفعل حتى الآن. فقط تخيرت لها اسمها حينذاك- ابتسامتان!" ماالذي يجعل صبيا يفكر في تقليد الممثلين وصبياآخر يميل لكتابة الشعر أو القصة أو رسم لوحة؟. كيف تتفجر الموهبة التي تتفجر أحيانا حتى في بيئة معاكسة للإبداع تماما؟. أمر مازال لغزا تقريبا.

في الثانية عشرة من عمره يكتب أحمد الخميسي أولى قصصه بعنوان "أم نبيل ينشرها له والده على صفحات جريدة الجمهورية داخل عموده الأسبوعي الثابت المسمى "حصاد الأسبوع" لم تكن سوى إرهاصات كتابة. لكن من المؤكد أنه يكتب قصة متكاملة بالمعايير الأدبية لذلك الزمن، هي قصة "الشوق" تنشرها مجلة القصة[٢] التي ترأس تحريرها محمود تيمور في ذلك الوقت. وبعد ذلك بنحو عام – في ٥ مايو ١٩٦٦ يخرج علينا بقصة "رجل صغير في مجلة صباح الخير ويقدمه الكاتب الساخر محمود السعدني تحت عنوان "ابن الوز عوام" قائلا "هذا كاتب جديد لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، وهو يثبت نظرية "ابن الوز عوام"، فأبوه كاتب شهير جدف في بحار الفن نصف قرن أو يزيد هو عبد الرحمن الخميسي. وهذا الكاتب الصغير سنا عنده فكرة وله أسلوب ودودة كتب، من هذا الطراز الذي يقرأ كثيرا ويكتب نادرا. وأنا رغم

أنني حنبلي ومتزمت وقليل الثقة في الجيل الجديد، أدعوكم أن تقرءوا هذه القصة وأن تصلوا على سيدنا النبي.. وأنا أرجو ألا يداخله الغرور، خصوصا ونحن ننشر اسمه في نفس المكان الذي ينشر فيه كاتب كبير ورائد من رواد القصة والرواية وهو إحسان عبد القدوس وفي ديسمبر من نفس العام ١٩٦٦ تأتي الخطوة الأهم حين يقدمه إلي القراء الكاتب العملاق يوسف إدريس في مجلة الكاتب[٣] بادئا بتحليل قصته المنشورة "استرجاع الأحلام" قائلا:

"وهذا نموذج آخر من "القصة الجديدة"، انتفاضات الثورة على "القصة" و"الحكاية" والتسلسل المعقول، تحطيم هذا كله، وخلط الحطام جيدا ورجه بشدة ثم تركه يؤثر فى القارئ عن طريق مذاقه العام أو متوسط درجة حرارته أو عن طريق الارتباك العقلى الوجدانى القلق أحيانا، المعذب، الملطف، الشاعرى المحير إن شئت التعميم.. و"القصة الجديدة" التى نبشر بها هى قصة خلفت وراءها المعانى والأحاسيس والحكم المتعارف عليها وتنقب فى النفس البشرية، فى مناطقها القطبية والموارية غير المكتشفة عن معانى ومفهومات ومضامين قد أحسها وتحسها معى ولكننا لم نتفق بعد على أسمائها.. لهذا لا أجد أمامى إلا هذا المزيج المركب بعد حطام ما خلفه لنا القدماء من لغة وأسلوب وطرق، أجسد من خلاله وبواسطته جنينا فكريا وشعوريا وإن كان كامل النمو ويمضي يوسف إدريس قائلا "هذا عن القصة، أما عن الكاتب – فهنا

المشكلة والمعجزة والشيء الذى أرفض تصديقه. أحمد الخميسى، الـذى كنا نداعب محاولاته لكتابة القصة نفس مداعباتناله وهو صـغير. أحمـد يكتبها؟! قصة من النوع "الجديد" أيضا، وكالسيد البدوى بأسنان كاملة، وأكثر، بذقن وشارب، ولولا بعض هنات قلـة الخـبرة، لقلناالنـضج الكامل؟! ضعوا هذه القصة بعد قراءتها فيما شئتم مـن خانـات، أنـا شخصيا أضعها فى الخانة الجيدة جدا، ثم اعلموا أو فلتعلموا أن كاتبها سنه ثمانية عشر عاما واحتاروا، مثلى، أين تضعونها بعد هذا"

في تلك السنوات عاش أحمد الخميسي تجربة جيل الستينات، وظـل كما قال عنه محمود السعدني "يقرأ كثيرا ويكتب نادرا" في إطار محاولات أبناء ذلك الجيل التي رصدها يوسف إدريس لخلـق "قـصة جديـدة" وسرعان ما تخرج أولي مجموعاته القصصية إلي النور "الأحلام. الطيـور. الكرنفال" عام ١٩٦٧ الذي حلت فيه نكسة يونيو، وأعقبها محاكمـات قادة الطيران الشهيرة عام ١٩٦٨ التي أنزلت أحكامـا مخففـة بالقـادة العسكريين فانتفض عمال حلوان للتعبير عن استيائهم، وساندهم الطلاب من الجامعات في فبراير عام ١٩٦٨، وكان الخميـسي أحـد أولئـك الطلاب، فألقي القبض عليه وظل معتقلا نحو ثلاث سنوات في معتقل طره والقناطر مع مجموعة من الكتاب والمثقفين.

بعد خروجه من المعتقل لم ينشر الخميسي سوى قصة "البحر عـام ١٩٧٢ في مجلة الكاتب. ثم توقف. ما الذي جرى للموهبة التي تفتحـت

مبكرا؟ لماذا لم تكن تجربة المعتقل وقودا للمزيد من الكتابة؟ هل حقا كما يروى أحمد الخميسي في بعض الحوارات التي أجريت معه أن المعتقل علمه أن الكتابة لا تغير شيئا؟ وأن الأمر مرهون بالقوة؟ أم هي إلي جانب ذلك أسباب أخرى؟. على أية حال توقف الخميسي لسنوات طويلة عن النشر خاصة بعد أن سافر إلي موسكو للدراسة، وعمل هناك مراسلا صحفيا للعديد من الصحف المصرية والعربية. ثم عاد إلي مصر لينشر مجموعته الفريدة "قطعة ليل"[٤] التي قال عنها الروائي والناقد الكبير علاء الديب "منذ زمن لم أعثر على مجموعة قصص بهذه الأهمية والجمال والإثارة. ١٢ قصة قصيرة هي فيما أعتقد حصيلة عمل جاد طويل وإدراك ناضج لمفهوم الكتابة ووظيفتها.. وأحمد الخميسي يستعرض في هذا العدد القليل من الصفحات قدراته ككاتب أستاذ قادر على التعبير الموجز النافذ المشحون بالصور، كل قصة تجربة مختلفة في القص والتناول، لكن تجمعها جميعا روح واحدة من الأسى والشجن الذي يحمل روح العبارة القاسية التي يصدر بها المجموعة "إلي المستقبل الذي لا يأتي أبدا" وفي كل هذه الموضوعات هناك حالة من الإنسانية الراقية التي تنقلك إلي الأعمال الفنية الكبيرة"[٥]

وتمهل الخميسي بعد ذلك نحو ست سنوات ليصدر في ديسمبر ٢ مجموعته "كناري" التي فازت بجائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن أفضل مجموعة قصصية، وقد قدمها القاص والمبدع الكبير محمد المخزنجي بقوله[٦] "تمثل قصص أحمد الخميسي نماذج عالية لقدرات كاتب

من كتاب القصة العربية الكبار، فهو كاتب يمنح نماذجه القصصية شمول الرؤية، التي تمزج ـــ برهافة ورصانة معا ـــ بين الإنساني الخاص والوطني العام، بين التخييل المجنح والواقعية الدافئة، سبيكة مشغولة بلغة يفتـــــني فيها هذا الإيجاز البلاغي الذي يجعل جملته السوية القوية نابضة ومـــشعة، بلا إطناب، ولا استطرادٍ مُتشاعر، نسيج شفيف ومتين تنطلق عليه خيول حمراء تحيلنا إلى شجن وألم قضيتنا القومية، وبطات صغار مسحورة تلازم ضمائرنا حيال مذابح الطفولة العربية التي يتجاهلها عالم مخاتل، وشـــائج من حرير حي تربط بين آباء مغدورين وأبناء في التيه، بشر يـــشيد لهـــم الرعب السلطوي سجونا خانقة من هواء، أما القصة البديعـــة المـــسماة "قصة" فإن القصة فيها تتحول بذاتها إلى كائن حي، وهذا الكائن يلخص الحياة، إنها قصة بقوة رواية. إنه كاتب كبير ينهض على روح متعفـــف، وثقافة واسعة عميقة تنطلق من المحلي إلى العالمي، ودراية نـــادرة بـــأرفع نماذج الأدب الإنساني، ثم إنه يمتاز بتواضع صادق حيال ما يكتبه.. وهذا يقتضي قراءة جديدة لقصص كاتب كبير جديرة بكل احتفاء وتقدير

أما الروائي والناقد الكبير علاء الديب فقد اعتبر أن كناري "أجمـــل مجموعة قصصية منذ أرخص ليالي ليوسف إدريس"[٧] قائلا "هذه مجموعة قصصية لكاتب استثنائي. صدرت في ديسمبر ١٠ ٢ وعلى الرغم مـــن كل الأيام غير العادية التي نعيشها منذ وقت صدورها، فإنها تزداد أهميـــة وتفصح كل يوم عن قيمة جديدة، وقول يستحق التأمل فيه والوقـــوف

عنده. أحمد الخميسي واحد من النادرين المتفرغين حقا للكتابة الأدبية، إنه يأخذ كلماته بقدر نادر من الجدية ويشتغل على جمله وقصصه ومعانيه كصائغ يشتغل في الذهب الغالي، أو كمحارب يدافع عن أرض الوطن، إنه صاحب إدراك مثقف لمعنى ووظيفة الأدب، وصاحب حس جمالي لا يرضى إلا عندما تشف اللغة وتستقر على شاطيء الموسيقى. عشرون قصة قصيرة تطوف بك على أهم وأخطر قضايانا الاجتماعية، كما تحاول طرق كل أشكال القصة القصيرة من أول شكلها الكلاسيكي عند تشيكوف (مثلا قصتي: ممشى بين الأعشاب، وبدلة). إلي أشكالها التجريبية الحديثة في (بط أبيض صغير، فرصة سعيدة، حديقة). لم أتعود في هذا الباب الذي أنشغل فيه بتقديم الكاتب للقارئ أن أستغرق في العمل النقدي، ولكن الكتر الغني الذي يقدمه أحمد الخميسي يفتح مجالا خصبا لمناقشة شكل القصة القصيرة الآن، كما يضع القارئ أمام أخطر وأهم القضايا السياسية والاجتماعية بدون مباشرة فجة أو خطابية جوفاء، وأهم ما في الأمر هو البلاغة والاقتصاد اللذان تتميز بهما جمل الكاتب والعناية الفائقة بشكل القصة وبنائها بما يكشف عن عمق قضيته وأبعاد موضوعه، لذلك قارنت بين مجموعة "كناري" والعمل الخالد لعبقري القصة المصرية يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١). فمجموعة"أرخص ليالي (صدرت عام ١٩٥٤) هي بشكل أوبآخر، إلي جانب قيمتها الفنية، قد ارتبطت بثورة ١٩٥٢، كما ترتبط "كناري" بدون افتعال

وتزيد بالأجواء التي كانت مقدمة لثورة يناير ١١ ٢ أحمد الخميسي المولود ١٩٤٨، والحاصل على دكتوراه في الأدب من موسكو ١٩٩٢ يدافع عن قيثارته ويعزف ألحانه ويعيد لنا في نبله وكرمه وفروسية أخلاقه ذكرى شاعر وفنان عظيم هو والده عبد الرحمن الخميسي، وهو نموذج لم يتكرر في حياتنا الثقافية والفنية، وهو بالنسبة لأحمد الخميسي ليس فقط والده، ولكنه روح فنية وأخلاقية وثورة فكرية وإنسانية تسكن روحه"

ورغم الانقطاع الذي شهدته تجربة الخميسي في كتابة القصة إلا أنه يعود إلينا بهذه المجموعة الجديدة "رأس الديك الأحمر بتصميم على مواصلة طريق القصة القصيرة الذي لا ينكص عنه من سار عليه. ولا أود أن أتحدث كثيرا عن هذه المجموعة، أتركها للقارئ، لكني أستشهد بما كتبه د. أبو بكر يوسف عن قصة "ومض التي تضمها المجموعة قائلا "إن قصة ومض هي قطعة من الماس النادر كتبت بقوة وحرارة وصفاء تستدر الدموع والحنان، فهي نسيج مغزول بحب وعشق وعناية فتلة فتلة، وعقدة عقدة، لكنه نسيج من نور لايمكن لمسه باليد الخشنة بل يحتاج الى قلب طهور لكي يحتضنه ويدس وجهه فيه ويبكي. المدهش في القصة ليس اللغة فحسب بل واللحظة التي جرى وراءها أحمد الخميسي طويلا حتى أمسك بها. هل يمكن للحب أن يحول الإنسان المادة إلى طيف؟ وكيف يصيبنا الحب فجأة؟ وكيف يكون العشق بدون تفسير؟ هي قصة ترد الاعتبار للواقعية الجميلة التي تتجاوز الخيال وتلهب العواطف وتسمو بالإنسان"

"رأس الديك الأحمر تؤكد لنا مرة أخرى أننا أمام موهبة كبيرة مازالت تحمل في طياتها الكثير من مفآجأت الإبداع الحقيقي.

عادة يقوم النقد بإضاءة العمل الإبداعي، إلا أن القارئ لأعمال أحمد الخميسي سيشعر أن النص يضيء النقد، ذلك أن قصص الخميسي تؤكد مشاعر النقاد نحو لحظاته المتوهجة، التي يعجز النقد أحيانا عن الإمساك بها، ذلك أن ثمة جوهرا نورانيا في الإبداع يحس ولا يمس، وقراءة هذه المجموعة فسحة للروح تسمو بها وتطهرها، تضحكها أحيانا، وتبكيها، وتدعوها في كل الأحوال لتأمل حياتنا.

هوامش

١- العربي الكويتي – أبريل ١٢ ٢ – والدي عبد الرحمن الخميسي

٢- مجلة القصة – وزارة الإرشاد القومي - العدد ١٦ – أبريل ١٩٦٥

٣- مجلة الكاتب – العدد ٦٩ – السنة السادسة – ديسمبر ١٩٦٦ – قصة استرجاع الأحلام أحمد الخميسي – تقديم يوسف إدريس

٤- دار ميريت – القاهرة – قطعة ليل – ٢٠٠٤

٥- جريدة القاهرة – علاء الديب – ٧ يونيو ٠٥ ٢

٦- كتاب اليوم – أخبار اليوم – كناري – أحمد الخميسي - ديسمبر ٢٠

٧- جريدة القاهرة – علاء الديب – كناري أجمل مجموعة – ٢٢ مايو ١٢ ٢

رأس الديك الأحمر

قبضتان ضغطت جناحيه بقوة إلى جنبيه فأحالته إلى كتلة مدمجة لا يتحرك منها سوى الرأس بمنقاره يضرب يمينا ويسارا بجنون. اجتهد ليتملص من القبضتين مهتاجا بحب البقاء. حث جناحيه على الرفرفة بدون جدوى. لحظة، هوت بعدها السكين على عنقه بضربة باترة فصلت رأسه. طار الرأس في الهواء مسافة ثم هوى على الأرض، تقلب متدحرجا حتى سكنت حركته تحت حافة الثلاجة. راحت العينان الضيقتان اللامعتان تحيطان بالمشهد أمامها، تتابعان خيط الدم على البلاط الأبيض، تلاحقان تخبط البدن بين قدمين راسختين.

دم لم يترفه الجرح بعد واصل مسيرته في الدماغ وفي البدن المفصولين. يحدق الرأس مذهولا بجثمانه وهو ينهض متحاملا على مخالبه وساقيه وفخذيه. ينفش الجثمان ريش صدره ويتقدم خطوة وحده من دون رأسه. يتمايل. يضغط على مخالبه ليحفظ توازنه. يلتفت إلى اليمين. يتوقف متجمدا. بركة دم صغيرة تجري حول مخالبه. يشرأب نصف العنق المفصول متلفتا بالغريزة بحثا عن طريق.

يرمق الرأس ساقيه بعيدتين عنه ترتجفان. هما ساقاه، وهذا صدره الذي طالما شق الهواء من أعلى سور البيت القديم، والريش البني الأقرب للأحمر ريشه اختال به بعد معاركه مع الديوك الأخرى. يشتعل الرأس

رغبة في الزحف إلى بدنه. تغدو الرغبة جارحة من اليأس فيرتد إلى ذكرياته. فجر القرية وهي تفيق على صيحته، هواؤها، سماها. الغيطان المفتوحة أمامه. الوثب إلى حافة بئر المياه. الدجاجات يحطن به في نصف قوس في مشيه وفي جثومه حين تعتم الدنيا. الزرع الذي يبس فجأة من حوله. الكلاب التي ضمرت. اليد القوية تختطفه وتزج به في قفص. تسوقه إلى مكان بعيد. العش الغريب. منقاره وهم يقصونه بآلة حادة. فتات الطعام. حلمه مئات المرات أن يستعيد حريته. بدنه كان يتردد ويطوي جناحيه على السلامة. الآن يتفجر البدن وحده بالمهانة المختزنة طويلا. يهتاج ثائرا يفتش عن منفذ. يخطو بمفرده متخبطا. يرتطم بساق سلم خشبي على الجدار. يكاد أن يقع. يشد عضلاته ليظل واقفا. يندفع غير آبه. يصطدم بماسورة تحت حوض الماء. يتمهل. ترتعش كل خلية فيه بغريزة التفكير.

الرأس ملقى قرب حافة الثلاجة بعرفه الأحمر يرى طريق النجاة. الباب! إذا عبر البدن من الباب سيسترد حريته وشموخه. الباب. ابتهل الرأس إلى الرب أن يمنحه لحظة واحدة مع بدنه ليبثه الرسالة. الباب. لكن خيوط الدم توشك أن تنهى دورتها الأخيرة في الرأس. يشعر بعطش قاس. بضعف. بدوار. باختلاط الرؤى والرغبات والذكريات. بحاجته الماسة إلى دفء بدنه وحرارته. تتباعد ومضات عقله وتبهت. تغيم بينه وبين بدنه المسافة القصيرة من البلاط الأبيض.

فجأة، انفلت البدن. رفرف لأعلى. دار في الهواء دورة عجيبة غير متوقعة. خفق جناحاه بين الأرض والسقف. اندفع إلى نافذة مفتوحة وانطلق منها إلي الحرية.

تطلع الرأس إلى النافذة بنظرة خابية. لقد نجا؟! نجا! كيف لم تخطر النافذة على بالي؟!

ينطفيء لون العرف الناري على البلاط الأبيض. يحشد الرأس كل ما تبقى له من ومض. يتسمع جناحيه في الهواء البعيد. إنه أنا من دوني! فكيف حدث ذلك؟

- جريدة الدستور – أبريل ٢٠١٢

***

قائمة للنسيان

كانت الساعة الثالثة ظهرا حين هبط من الميكروباص وانعطف يمينا إلى أول شارع جانبي. مشى ببطء نحو العمارة بأعوامه التسعة عشرة، في قميص نصف كم وبنطلون جيتر، بحذاء رياضي أبيض وكاسكيتة قماش صفراء. مشى بعصبيته ونحافته وقلبه الساخن من شمس مشاعره.

"لاتحاولين حتى أن تتصلي لتصالحيني؟. أوكي. خلاص. قسما بالله لأوريك كيف تكون القطيعة. خلاص. لكن تذكري. على أية حال أنا سأتذكر أن ثلاثة أيام كاملة مرت من دون أن تتصلي. لو اتصلتِ لسمعتُ رنين المحمول فلستُ أصم. تثبتين للمرة الألف أنك كتلة من الأنانية. إذا لم تتصلي الآن قبل أن أبلغ باب الشقة فلا تتصلي بي أبدا. مفهوم؟"

أصبحت العمارة على مرمي البصر. سار ببطء ليمنحها وقتا أطول للاتصال. تمهل عند المدخل. فتح صندوق البريد الفارغ. تأنى وهو يغلقه. صعد السلالم ببطء. تريث عند كل طابق. رغم ذلك كله وجد نفسه أمام باب الشقة من دون رنة اتصال. تنفس بعمق. رفع رأسه لأعلى بتصميم وحسم "طيب. إذا لم تتصلي الآن قبل أن أفتح الباب اعتبري أن علاقتنا انتهت للأبد. الآن آخر فرصة لك. لا؟ أوكي

أدار المفتاح في الباب. "خلاص. سأنساك تماما. هذه المرة وجـــدت طريقة لكي أنساك إلي الأبد"

دخل الشقة. شاهد والدته في الصالة تقشر بطاطس في طبق وزميله ناجي أمامها على الكرسي المقابل على ركبته كتاب. نهض ناجي واقفـــا وتطلع إليه من فوق رأس الوالدة بنظرة استفهام. هز له رأسه بالنفي.

كان ناجي صديق طفولته منذ المدرسة وزميله بـــسنة أولى كليـــة الآداب، ومطلع على كل شيء. كان معه منذ اليوم الأول الذي تعـــرف فيه إلى نجلاء في كافيتريا الكلية. لكن نجلاء يومها اختارته هو. ربمـــا لأن ناجي هاديء الطبع كما أنه ظل في ذلك اليوم يبربش بعينيه كثيرا.

قال لأمه "سندخل حجرتي لندرس قطعا الصالة وما إن أغلقا باب الحجرة عليهما حتى استفهم ناجي بلهفة "ألم تتصل؟" قال "لا أنا قررت أن أنساها تماما"

كان بالحجرة سرير لشخص واحد ومكتب صغير. علـــى الحـــائط صور لنجوم الفن وزعماء. في كل ناحية ملابس مرمية. استراح نـــاجي على طرف السرير ووضع مرفقيه على فخذيه ورأسه لأســـفل "نجـــلاء تحبك، أما الشجار والنقار فيحدث كل يوم"

صاح فيه "اسكت وحياة والدك. ما هذا الذي يحدث كل يـــوم؟ أيحدث كل يوم أن تتهم فتاة حبيبها بالخيانة لأنها رأته في حلم مع بنـــت

أخرى؟! يانجلاء كيف ذلك؟ تقول لي – رأيتك معها. بالأمـــارة هـــي بيضاء وطويلة فلا تكذب. يا بنت الحلال هذا حلم! الأحلام لا تأتي من فراغ يا محترم. قل لي من هي هذه الصعلوكة؟ أين التقيت بها؟ أتغضبين بسبب حلم؟. لا يا أستاذ بل أغضب لأنك تخونني!. يـــانجلاء اعقلـــي أتقصد أني مجنونة؟ عندك حق أنا مجنونة لأني صدقتك ووثقت فيك. مـــن يومها أتصل بها عشرين مرة في اليوم أرسل لها رسائل على المحمـــول لا ترد. ثلاثة أيام بلياليها لا يهمها أني أشتاق إليها. لا يهمها أني محـــروم منها؟ لا يهمها أني أضع المحمول بجواري وأنا نائم، أســـتيقظ مـــرتين أو ثلاث في الليل متخيلا أني أسمع رنينا وأنها تتصل؟ السخيفة التافهة عذبتني وأحرقت أعصابي قال ناجي "لا تافهة ولا شيء. هي بـــس مرهفـــة وحساسة. تحملها"

صاح فيه "أتحملها ؟ لماذا؟" نهض واقفا. رفع كتفيه لأعلى قلـــيلا ومط شفته وبعينيه استغراب ثم دق كفا بكف "ياربي! ياربي! ما الـــذي أعجبني فيها؟ صوتها؟ ذكر بط! عيناها؟ مبحلقة! وكيف تمشي؟ تندفع في الشارع تطوح ذراعيها كأنها في حلقة ذكر! عميت حين أحببتها؟ طبعـــا عميت!" طقطق ناجي بلسانه "لا لا عمري ما رأيتها تمشى هكـــذا. بالعكس. نجلاء تلمس الأرض برقة وتكاد تطـــير كمـــلاك. وعيناهـــا؟ واسعتان تسحبان الإنسان. لا. لا نجلاء جميلة"

هب فيه "لا جميلة ولازفت. جميلة تخاصمني وامتحانات آخر السنة على الأبواب؟ قل قاسية، أنانية".

وقع بصره على الكتاب بيد ناجي "تاريخ الأدب الانجليزي" قال "لا أدري كيف يكون تاريخ الأدب أطول من الأدب نفسه؟!" استدار وسحب دفترا وقلما من على سطح المكتب. جلس بجوار ناجي على طرف السرير "أوكي. على أية حال فإني فكرت طويلا كيف أنساها ووجدت طريقة" تساءل ناجي بشك "أية طريقة؟" قال "اسمع. سابقا كنت كلما تشاجرنا أحاول إخراجها من رأسي لكني كنت أنساها في مشهد فتشب لي عيناها من مشهد آخر، أنسى جولاتنا عند حدائق الأورمان فتقفز ابتسامتها أمامي. أطرد ابتسامتها من مخيلتي، فتمشي نحوي من مدرج المحاضرات. الآن، بعد تفكير، وجدت طريقة علمية لنسيانها" تساءل ناجي "علمية؟" أخذ يشرح له "فكرت أني لكي أطرد كل شيء من ذاكرتي فلابد أن أتذكر كل شيء. أسجله. وأتذكره جيدا لكي أنساه. خذ عندك مثلا..

أخذ يدون في دفتر على ركبته:

١- التمشية في حدائق الأورمان.

٢- اليوم الذي ذهبنا فيه إلي السينما. أذكر اليوم كله. رافقتها حتى البيت وركبت معها المصعد. كنا وحدنا. قبلتها. ياخرابي ياناجي. مشهد فظيع لا ينسي. تسجيله ضروري لكي أنساه.

زام ناجي: هذه ذكرى لا تضيع بسهولة. أيضا لا تنس كوفي شوب الروضة. قضينا فيه أيام التعارف الأولى؟

قال: آه. بالضبط! يخرب عقلك! جميل أنك ذكرتني!. دونته.

قال ناجي: والحقيبة القش المشغولة بعصافير ملونة؟

قال: أية حقيبة؟

قال ناجي: الحقيبة التي كانت تعلقها على كتفها أول مرة التقينا بها في الكافيتريا؟ ألا تذكرها؟

قال متشككا: لكن هل الحقيبة مهمة فعلا؟ أوكي سأسجلها احتياطا.

نهض صالح واقفا وقد تذكر: آه. فرشاة الأسنان. كدت أنساها. هي التي ألحت عليَّ أن أنظف أسناني يوميا حين رأتني أدخن كثيرا واشترتها لي. من يومها لم أبدل الفرشاة. كنت أشعر بأنها معي كلما نظفت أسناني صباحا. سأحطمها وأرميها. أتعرف ماالذي فاتني تسجيله؟ نظرة عينيها. بالذات حين كانت تنظر إليَّ بحنان. سجلتها.

تمتم ناجي بتأثر: نعم. نظرتها دافئة. لكن هل تظن أن هذه الطريقة علمية؟ أقصد تنفع؟

قال: بالطبع. سأحتفظ بالقائمة معي كلما تذكرت شيئا أكتبه لكي أنساه. الآن سأنساها طوال الوقت. سأنساها باستمرار.

دق جرس المحمول. رقمها على الشاشة. التهب وجهه من الانفعال. شع دفعة واحدة بحيوية ونضارة.

قال: أوكي. سآتيك حالا. حالا.

سأل ناجي متنهدا بخفوت: نجلاء؟.

أجابه بعينين لامعتين بالفرح: هي. روح قلبي. هـــي. هـــل هنـــاك غيرها؟. اختطف الكاسكيتة الصفراء. اندفع مـــن الحجـــرة إلى الـــصالة كالسهم. خرج من باب الشقة يطوي كل ثلاث درجات مـــن الـــسلم بقفزة واحدة.

هرول ناجي خلفه. استند على حافة السلم. رأسه لأسفل ينادي:

- ياصالح! أعود لبيتي أم أنتظرك؟

استدار راجعا يضغط كتاب تاريخ الأدب الانجليزي تحـــت إبطـــه. دخل إلى الحجرة. جلس إلى المكتب وفتح الكتاب أمامه. "ظهرت قصص المغامرات الخيالية الانجليزية شعرا في القرن الثاني عشر أغلق الكتـــاب. أطلق زفرة حارة "نسي يوم تفسحنا بقارب في النيل وهي واقفة تضحك بين البنات" تنهد بخفوت "نجلاء جميلة. جميلة جدا"

***

ومضْ

أمطرتْ في تلك الليلة خلال عودتي إلى البيت. توقفتُ من التعب والبرد ما إن لمحت مقهى امتد إلى الرصيف محاطا بشجيرات قصيرة مضاءة من داخلها. مشيت إليه. جلست في ركن دافيء. تصاعد البخار من قدح الشاي في الجو الغائم. سرح بصري في البيوت المقابلة. ثالث سماء تمطر عليَّ وحدي من غير رحاب تلح زوجة أخي أن أتخذ لنفسي امرأة. لا تفهم أني أحن ليس لامرأة لكن لرحاب، بارتجافات روحها العنيفة المتقلبة ورقة شفتيها النحيفتين، بالليونة التي تلامس بها الأرض كأنها قطة تتنقل على وسائد أقدامها، بانهياراتها تبكي بين ذراعي، بسرور عينيها في فورة الأسى الخفيف. كانت كل شيء، برحيلها صار كل شيء أنها ليست هنا.

أفقتُ على الجرسون يرفع الكوب الفارغ من أمامي. نهضتُ ببطء. دسست يدي في جيبي أفتش عن نقود. لمحت بركن عيني شابة تهرول على الرصيف المقابل بوشاح مرفوع على رأسها. ما أن تطلعت إليها حتى توقفت في مكانها. أحنتْ رأسها قليلا. استدارت ناحيتي ببطء. رمتني من بعيد بنظرة قاسية شوهت ملامحها. وحتى في الغيم والمطر تعرفتُ إلى الوجه البرونزي الذي فتحت عيني وأغلقتهما عليه للأبد، إلى الشعر القصير على جانبي الوجه، نظرة الكبرياء تداري مرارة الوحدة. حدقت بها مبهوتا عبر خيوط رذاذ خفيف لم تطوح الريح مسار نظرتها إليَّ

ولا لهفتي وذهولي. زحفتْ بطرف قدمها تحك حافة الرصيف ببطء حتى بلغتْ الأرض ثم راحت تسحبها بتردد. اعتدلت واندفعت للأمام وهي تتفادى برك المياه الصغيرة.

هرولتُ في أعقابها. سبقتني وانعطفت بسرعة إلى شارع جانبي. بلغتُ رأس الشارع بأنفاس مخطوفة. وقفتُ أرهف السمع. لا دبة قدم ولا صدى خطوة. حدجت في مداخل البيوت بأنوارها الضعيفة. أرسلت بصري إلى الظلال والسكون في آخر الشارع. لا شيء سوى رجفة أوراق الشجر من الريح. حدقت، ومن طول ما حدقت صرت لا أرى إن كانت رحاب هناك أم أنها توارت من زمن. نسمة دارت حولي تفوح بالياسمين الذي كان يسبق رحاب وهي مقبلة كما تمهد النغمة لدخول اللحن الكبير. ملأت صدري بها. ضغطت عطرها مرة واثنتين في رئتي فجاش الحنان الذي طالما بادر لانتشالها من انفعالاتها فإذا هوى في لهيبها عجل في أعقابه حنان إثر حنان صفا لا يتوقف من عشق يفتديها. توارت رحاب ومن كثرة ما طلبها دمي جُن قلبي و لم يلق سوى ليل فرجع إلى الظلمة بدون قمر، يمشي في ليلها الشاسع، يرف في وحشة بين مليارات النجوم، يحدق بشررها، ويرى التوقد الأخير للروح.

***

استرعت رحاب انتباهي من أول مرة رأيتها بوقفتـــها المرتبكـــة في انتظاري وتلفتها القلق. كانت ترتدي بنطلون بنيا محبوكا وبلوزة سماويـــة مفتوحة عند صدرها، تدلت من ذراعها حقيبة جلدية كبيرة قلما تحملها الفتيات. أنيقة على نحو يترك انطباعا بأنها أكثر تحررا من أن تقيد بمفاهيم سائدة عن المرأة والأناقة. تصافحنا واتجهنا إلى كافيه "ريش كان عـــدد الحضور قليلا على المناضد من حولنا. سألتها إن كانت تود أن تتناول عشاء خفيفا فرفضت مكتفية بالشاي مع قطعة ليمون وطلبت أنا فنجان قهوة. في البداية كان في عينيها نظرة ترتج بين الفرح والقلـــق وعنـــدما هدأت لاحظت أن صوتها مستقيم دقيق ينبر بأفكارهـــا دون ليونـــة وأن نظرتها لا تميع. تحدثتْ باستفاضة عن عملها في الصحافة. مرت بكلمات كضربات ريشة سريعة على حياتها وأنها عانت أزمـــة صـــحية عنيفـــة وتجاوزتها. عندما بدا أنها قالت كل ما لديها سألتني "أنت كيف تعـــيش؟ كيف تقضي وقت فراغك؟ ما الذي يشغلك الآن؟" قلت لها "أبحث عن حلة كهربائية تطهو الأرز وتضبطه وحدها وفي ساعات الفـــراغ أقـــوم بالتدريس في الجامعة" ضحكت غير مصدقة "حلة أرز؟! أية حلة؟! أليس لديك من يطهو لك؟" قلت "لا" انزلقنا بيسر إلى مشكلات المواصلات وطبائع الأصدقاء وذكريات الصبا ثم الوحدة فالتجارب العاطفية. قلت لها إنني عشت طفولة فقيرة حتى أنني كنت ألصق أذني بجدار سينما أســـتمع إلى الأفلام. قالت إنها هي الأخرى كانت محرومة من الحنان وأن والدها

توفى مبكرا لكنه يعيش معها طوال الوقت تستشيره في كل أمورها وتقف في ذكراه السنوية في الشرفة تخاطب السماء يا أبي هذي أنا ابنتك رحاب، أذكرك وسوف أذكرك، واعلم أنني مصممة على أن أعبر إليك أينما كنت.

شعرتُ وأنا أنصت إليها بقلبي يفتح عينيه على مياه زرقاء من خيالات أحلام غرقى وأنوار أقمار متكسرة. توقفت لحظة عند باب المقهى حينما خرجنا. فركت سيجارتي بطرف حذائي فسبقتني بخطوة. جلت بعيني فيما حولي قبل أن ألحق بها. بدا العالم مختلفا. كأن أحدا سكب نورا على الشوارع والأسفلت والعابرين وحتى على الهواء. سرت إلى جوارها بحذر. خفت إن أنا لمستها سهوا أو هف عليهَا ضوء أو هبط ظل أن تتلاشى من أمامي. أردت طوال الوقت أن أضع يدي على كتفها لأمسك بها معي هنا على الأرض.

تحدثنا والتقينا بعد تلك الأمسية في أماكن كثيرة مختلفة. كنا في مطعم سمك نتغدى. تلامست كتفانا وأنا أناولها الخبز المحمص. انبعثت بيننا حرارة في موضع التماس. خيل إليَّ أن كل ما حولنا في المطعم من إضاءة وبشر وأصوات زخارف فرحتنا. مدت يدها إلى قائمة الطعام المغلفة بالجلد. فتحتها ثم ألقت بها جانبا. قالت "أحيانا لا أصدق أنك الشخص الذي التقيته في المرة الأولى "كيف؟" قالت "تندفع علاقتنا للأمام بجنون حتى أني بعض الأوقات أتصور أنك محض خيال". قلت لها

"الخيال واقع لكن من نوع مختلف" راحت تتأملني طويلا. سألت "هل تستطيع احتمال امرأة عصبية مثلي؟" رأيت في عينيها دخان عذاب قديم. أردت أن أضمها إلى صدري، أربت على كتفها طويلا. قلت "أحتملك فقط للأبد" لاحت بسمة واهنة على شفتيها "لكني إذا شعرت بنفسي وحيدة أهيم على وجهي أي وقت، أبكي في الليل أو النهار؟" قلت "كانت في حياتي نساء قبل أن أجدك. عندما رأيتك أدركت أني أحببت كل واحدة منهن نصف محبة، غير أنصاف المحبات السابقة، الآن يمشي قلبي كله، بكل محباته، إليك. وتقولين هل تحتمل؟ كأنما تسألين هل أحتمل السعادة؟" مدت يدها. أمسكت بيدي للمرة الأولى. أجرت الدم من أصبعها بوخزة دبوس وفعلت المثل بأصبعي ثم سحبته وألصقت الأصبعين في موضع النزف كما يفعل الصغار قائلة "من هذه اللحظة أنا امرأتك وأنت رجلي. للأبد" لمعت عيناها ولفح وجهي تنهدها الساخن "عهد"

***

قاربت الساعة العاشرة وأنا أفتح باب الشقة. صمت وأتربة متراكمة ومظاهر فوضى الحياة بدون امرأة. تذكرت المقال الذي طالبني به د.صفوت لمجلة العلوم. دخلت حجرة مكتبي لأتصفح أوراق مشروع كتاب لأقتطف منها ما يصلح للمجلة. ثمة باب كامل عن أن المادة

والطاقة صورتان لشيء واحد وأن المادة تتحول إلى طاقة موجية كالضوء والعكس. كانت هناك محاور أخرى شيقة. لم تكن لديَّ رغبة في الكتابة. أغلقت الملف على المسودات. أعدته إلى مكانه. كانت رحاب المغنطيس الذي تندفع إليه كل أعمالي الكبيرة والصغيرة. لم يكن يفلت من مجالها شيء. إذا اشتريت قميصا أفكر هل سيعجبها أم لا؟ إن ألقيت محاضرة أسأل هل ستمتدحني؟ حتى الأشياء التي كنت موقنا أنها ستغضبها كنت أقوم بها سعيدا لأن رحاب معي "ستغضب" كأنما ليس لحياتي وجود إن لم يظهر في مراياها. أخذت أنظر إلى صورتها على المكتب. كانت رحاب قد رأت الصورة في حجرة مكتبي عندما زارتني للمرة الأولى. أمسكتها من يدها أريها الشقة. دُهشت "معقول!" ثبتت عينيها عليَّ بحنانٍ كأنما تكتشف شيئا لم تكن تثق في وجوده. لم أقل لها إنني حين أجلس لأعمل أرفع عيني من وقت لآخر إلى الصورة. أرى كل مرة في وجهها تعبيرا يلفحني مرة بحزن، مرة بأمل، مرة بغموض، كأني أرمي أحجار تنجيم صغيرة، فأقرأ في نفس الأحجار كل مرة مصيرا مختلفا. تجولتْ في الشقة حتى اكتفت. قالت "جميلة فعلا" ضحكتْ. كانت نظرة العذاب القديم تتبدد من عينيها وهي تضحك ويخرج صوتها كفاكهة صلبة تتر حلاوتها.

في الصالة كان ثمة أريكة وكرسيان ضخمان حولها. في مواجهتها أريكة أصغر. اختارت أن تجلس على كرسي منفردة. سألتها "أترغبين في كأس عصير؟". قالت "ممكن قهوة". نهضتْ واتجهتْ للمطبخ اختارت

كنكة وراحت تعد القهوة بنفسها. جلستْ. لم تأكل أو تشرب سوى قدح مياه معدنية بعد أن اطمأنت إلى أن الزجاجة لم تكن مفتوحة. فردت ساقيها أمامها وأخذت تخبط قدميها ببعضهما "سأقول لك شيئا. لقد تعرفت إلى الكثيرين من قبل وتصورت أنهم يحملون المعاني الجميلة التي أشعر بها معك واكتشفت أن كل المعاني عندهم تقود إلى السرير ربعت ذراعيها ناظرة إليَّ بتحد "هذا شيء أرفضه تماما" حلت على دهشة ممزوجة بمرارة. هتفت بها "أيعقل أنك لا تشعرين بأن ما في نفسي أعمق مما تتحدثين عنه؟ حين تكون المرأة كومة لحم يكون الرجل أيضا كومة لحم ارتكزتُ بمرفقي على فخذيها "أنا أحبك. والإنسان لا يفرط في قبة سماء عالية لأجل حفنة تراب وحصى دسستُ رأسي في حجرها كأنما أود لو تلدني الآن. هدأ صوتها هابطا إليَّ "أقول لك هذا لأني لا أريد أن أفقدك. قلبي يطير إليك طوال الوقت وأراه يحترق نحوك ولا أقوى على دفع اللهب عنه" انهلت على عنقها وكتفيها بقبلاتي "لقد حافظت على حلمي بك كأني طيلة عمري كنت أخفي سرا حتى حانت اللحظة لأفشي السر بكت. أمسكت وجهي بين يديها تقبلني. وقفت بحزم. قالت "بم سينتهي هذا الكلام؟ لابد أن نخرج من هنا. دعنا نذهب إلى أي مكان" جذبتني من يدي تشدني لأنهض. في الطريق وضعت ذراعي في ذراع رحاب. للمرة الأولى لم تمانع. جبنا محلات وسط البلد. كانت تبحث عن هدية لصديقة في لندن. ظللنا نلف حتى انتهت إلى محل هدايا فرعونية.

دخلت. أخذت تقلب الهدايا من دون أن تستشيرني. أخيرا استقرت بين يديها صينية من النحاس منقوشة بالفضة راحت تتمعن فيها طويلا. حدجت في جانب وجهها البرونزي الصغير. نحن لا نجد سببا أو تفسيرا للعشق، كما لا نجد تفسيرا لهبوط شعاع برق على إنسان بعينه دون الآخرين في زمان ومكان محددين. التقيت من قبل بكثيرات جميلات لكن الشرارة لم تندلع، على العكس كانت تتوارى في العمق كأنما تخشى على صفاء لهبها أن يشوبه إعتام. الآن مع رحاب أجدني مضطربا مرتبكا مشتعلا حائرا ملهوفا و لم يسبق أن شملتني هذه الحال.

قصدت حجرة النوم. تقلبت طويلا إلى أن نمت بصعوبة. رأيت في منامي رحاب تنسل من بقعة معتمة تتقدم نحوي. تتعرى أو أنها كانت عارية. تشدني بقبضتيها الاثنتين من أطراف قميصي. تنظر إليّ بجنون متوسلة متألمة بدون كلام. ترقد على الأرض تجذبني إليها بوجه متشنج. أنحني عليها. تغمض عينيها وتفر برأسها يمينا ويسارا. أمعنت النظر إليها. أدركت أنه ليس ألم الرغبة والحب، بل نوع آخر من ألم عميق مكتوم. تفطر قلبي عطفا. أفقت من نومي والحلم في جفوني.

قمت من سريري. وضعت رأسي تحت صنبور المياه. تطلعت إلى وجهي في مرآة الحمام. رحاب مقيمة في ذاكرتي تقتات بأعصابي. تأكل، تشرب، تخلع ملابسها، تنام، تصحو، تترك سريرها دون ترتيب. تعد قهوتها. تستدير بعنقها إليّ مبتسمة. إما أن أنزع خيالاتها من نفسي لأحيا

حياتي، أو تغدو أيامي مسرحا لأطياف ضحكاتها. كأني معها في بحـــر، نحاول إبقاء رأسينا فوق الماء لكي لا نغرق، تؤرجحنا الميـــاه. أصـــابعنا متشابكة تحت الشمس. يغمر الموج عيوننا وينحسر. نحدق خطفا. يعلـــو الموج بحياة واحدة لشخصين ويهبط بحياة واحدة لشخصين.

غلبني النعاس. قرب الفجر شعرت بومضة لون برتقالية تجري علـــى جفني رافقها صوت يتفلت من روح أطبق عليها الصخر. رفعت رأســـي من على الوسادة. شاهدت الومضة خطفا على الجدار. أخذت أقلب عيني في العتمة. لاحق بصري ذيول ظلال هاربة على النافذة. ما الذي يحدث لي؟. قمت أضأت نور الحجرة. لا شيء. هلوســـة الوحـــدة والـــشوق للمستحيل.

رقدت على الأريكة في الصالة لأســـتريح قلـــيلا. غطيـــت عـــيني بساعدي. غفوت وأنا أحلم أني مستيقظ أفكر في يقظتي في تلك الومضة البرتقالية. إن كانت روحا فلم لا تبين؟ إن كانت رسالة من عالم آخر فلم لا تتضح؟ أم أن الخرف قد ضرب عقلي؟

***

ذهبت إلى عملي في الصباح. في المساء قصدت عيادة الطبيـــب في وسط البلد. فحصني باهتمام. أحنى رأسه يكتب الدواء قائلا "أنت تطحن

ضروسك بقوة أثناء النوم. تقلق منامك بنفسك فيخيل إليك كل ذلك"
لم أكن واثقا من التشخيص لكني عرجت على صيدلية واشتريت الدواء.
في الطريق مررت بمحل الهدايا الذي توقفت عنده رحاب ذات يوم.
دخلته. ظللت واقفا متظاهرا بأني أتفرج بالمعروضات وأنا أستصفي وجه
رحاب من أجوائه. خرجت.

بعد أسبوع من وجودنا في ذلك المحل سافرت رحاب إلى لندن في
مهمة صحفية. لم تنقطع رسائل المحمول بيننا ساعة. كتبت لها "كل من
يراك الآن في لندن يتصور أنك وحدك. لكنك تعلمين أنني أقف بالقرب
منك. وراءك بخطوة، أو بجوارك، أو أتقدمك قليلا. لا يراني أحد لكنك
تعرفين أنني بجوارك؟" كتبت هي "أكاد لا أصدق كل هذا الحب؟!"
عادت من لندن وعانقتني بقوة في المطار وقدمت لي حزاما جلديا وزجاجة
كولونيا. التقينا بعد ذلك كثيرا. زارتني عدة مرات. في إحدى المرات
تمددت أمامي على الأريكة في الصالة. رأسها على المسند قدماها أمامي.
وضعتُ وسادة صغيرة تحت رأسها. راحت تتطلع إليَّ بكسل شارد أثناء
حديثنا. وقفت تتأمل بعض الكتب التي كنت اشتريتها خلال سفرها.
عرضت عليها أن تأخذ منها ما تريد. رفضت ضاحكة. قالت "دعنا نغير
المكان" اتجهنا إلى مائدة الطعام. جلسنا متقابلين نثرثر. وفي لحظة تطلع
كل منا للآخر. تفجر الحب الذي جري بنار مكتومة. تجمدت نظراتنا
مشحونة بالتوتر تستفسر إن كان الوقت قد حان. نظرات تذوب

وتتماسك وتتمنى وتقاوم. أمسكت يدها. قبلت أصابعها. شعرت أني أدخل جنة بعد جنة من كل أصبع. اشتعلنا مرة واحدة. تلاشى كل ما حولنا. لم يبق سوى كتلة من نار تدور في نور. كل النجوم والمجرات مضيئة بداخلنا. لم تكن متعة البدن اللاهبة هي التي غيبتنا عن الوعي، بل شعور مذهل بالروح تمزق الروح لتسكنها. تشقق الذكريات مندفعة إلى ذكريات. تفتت المواجع تجري إلى شبيهاتها. تكسر الأماني تتحد بأماني. اندفاق الأمل يتوحش ليلقى الأمل في الروح الأخرى.

ظللنا راقدين على ظهرينا فترة نتطلع إلى سقف الحجرة صامتين، كخارجين من حريق يتفقدان ما تركه الحريق، نحمد ما تناثر فينا من بؤر لهب. نستجمع بإدراك متطاير قسماتنا الأرضية التي ستعرفنا الدنيا بها ونحن راجعين إليها. أخيرا مالت رحاب على جنبها. وضعت رأسها على كتفي. نامت وفمها مفتوح قليلا ويداها بين ركبتيها. مكثت ساكنا لا أتحرك لئلا أوقظها أتأمل وجهها البرونزي الصغير. كان على شفتها العليا نقطة عرق صغيرة علامة وحيدة على أنها من لحم ودم. بعد نصف الساعة أفاقت مبتسمة. اتجهت إلى الحمام. عادت. تقدمها عطر الياسمين قبل ظهورها ملفوفة بفوطة كبيرة وقد أمسكت طرفيها عند صدرها. قلت "شبعت نوما وأكلت بقلاوة مع الملائكة" ضحكت "اليوم لم يكن عندهم سوى الفاصوليا" اتجهنا معا إلى المطبخ. أخذت أعد فنجاني قهوة. عندما استدرت نحوها ويدي ممدودة إليها بفنجان القهوة وجدتها قد

فردت الفوطة على كرسي بجوار المنضدة الصغيرة. جلست ووضعت ساقا على ساق. نظرت إليها مخفيا دهشتي العميقة. عارية تماما. نحيفة. دقيقة. لا مثيل لجمالها. تناولتْ الفنجان من يدي. أخذتْ ترشف القهوة وتحكي عن قصر أثري عرضة للانهيار بسبب الإهمال في شارع شامبليون. لم أكن أنصت لما تقوله، كنت مأخوذا بأن اندفاق نهديها بدفء عريها لم ينتقص ذرة من شعورها بالكبرياء، لم يربكها. رأسها مرفوع على ساق تتأرجح في الهواء مثل زهرة في ريح. تأملتها بنوع من الأسى لا أدري سببه وأنا أوقن أني سأظل أعشق هذه الشابة الصغيرة في هذا الكون وفي كل كون آخر كيفما كانت عناصره.

***

زارني في المساء طالب يعد رسالة ماجستير. جلس على طرف كرسي بين يديه دفتر يهز رأسه بأدب إلى أن انصرف. اتصل بي رؤوف ابن أخي يطمئن عليَّ. جلست أمام التلفزيون. تمنيت لو تهبط رحاب من عالمها لحظة، أراها، وتصعد ثانية. في نومي بالليل شعرت بومضة لون برتقالية تتوهج في مكان ما بصوت كالألم المكتوم. رفعت رأسي أتتبع مسارها مثل شرخ ملون في الهواء. أخذت الومضة تتهشم إلى فتافيت نور صغيرة تنهال عليَّ بحرارة. دفنت رأسي في الوسادة وأنا أكرر لنفسي بخوف أنه لا وجود للأشباح وأن ما أراه تهيؤات وهلوسة. لكن الومضة

برهة ثانية قرب الفجر، رحت أدير رأسي وراءها في الهواء إلى أن رأيتها تتسع وتتقلص مثل فم بشري. أردت أن أصرخ فلم يخرج صوتي. فزرت من السرير أتخبط بين الأبواب والجدران إلى الصالة. ضغطت على زر المصباح بيد مرتجفة. فتحت النافذة العريضة المطلة على الشارع. دفعت رأسي أعب من الهواء البارد. كان الشارع هامدا خاليا من البشر وظلال البيوت مرمية على ضوء القمر مثل حلم. ساعدني الهواء على التماسك. ثمة ظواهر لم يكتشف العلم حقيقتها. لماذا يؤمن الإنسان كما آمنت رحابْ بأن أرواح الغائبين تنصت إليه حين يخاطبها؟ وبأن المدى الذي يبلغه قدرة الروح على البقاء والتحول لانهائي؟ أتكون الومضة روحا؟ روح من؟ روح ماذا؟ أهي رحاب تذكرني؟ تصمم أن تعبر إليَّ؟ تعلم أن صوتها سيصلني؟

أغلقت النافذة. جرفني شوق أن أرى وجه رحاب أن سمع صوتها. دخلت حجرة مكتبي أفتش عن شريط مسجل عليه صوتها. بحثت في الأدراج وبين الكتب. أذكر أنني احتفظت به. ليس شريطا بل شريطان. قصدت حجرة رحاب. فتحت صوانا تكدست في قعره حقائب ملابسها، كتب عن الفن والأدب بالانجليزية والعربية، علب معدنية صغيرة مغلقة على حلي وخواتم. فتشت حتى عثرت على الشريط في علبة منها. نفضت الغبار العالق بحوافه. وضعته داخل جهاز التسجيل. أدرت الجهاز.

- ماذا تفعل؟ أتسجل كلامنا؟

- و لم لا؟ سأحتفظ بصوتك.

- صوتي؟ لم؟. أوكي. سجله. والله أنت أحمق كبير.

- أحمق لأنني أحبك؟ لأنني أود أن أحتفظ بصوتك؟

- أنا أيضا أحبك جدا. لكني أشعر أنك ستتكلم في موضوع آخر بعد دقيقة واحدة.

- أنت فقط تتذاكين.

سنرى.

- ببساطة أردت أن أقول لك إنني سعيد بنتيجة الفحوص التي أجريتها وبأن الورم حميد. كنت قلقا (صمتْ) جدا. خفت أن أضيع بدونك. الآن يمكنك من جديد أن تضيقي عينيك بغطرسة واستعلاء، تضعي ساقا على ساق وتشتمي طوب الأرض. وأنا أريد أن أسجل قلة أدبك للذكرى!

- (ضحكة) يا سلام! (صمتْ) أنا أيضا كنت قلقة. تصورت أن يومي قد اقترب خصوصا بعد وفاة فاطمة صديقتي. شيء مرعب. لكن الحمد لله كل شيء حسب كلام الدكتور تحت السيطرة. (صوت عود ثقاب يشتعل. تنهيدة) سجلت خلاص؟ كفاية؟

- نعم. لكن التسجيل لن يحطم أرقام مبيعات شرائط الكاسيت لأنه خال من شتائمكِ!

كيف؟ ألم أبدأ بقولي إنك أحمق كبير؟ (قهقه طويلة)

كنت تنامين فأدخل إلى حجرتك على أطراف أصابعي أهمس في الهواء لا تخافي، نحن معا. ما من أحد يحبك مثلي. لا أحد. تعرفين ذلك؟

ألم أقل لك إنك ستتكلم في موضوع آخر؟! تروح وتجيء وتنتهي عند غيرتك من كل من هب ودب. (صوت أنفاس متلاحقة) اطمئن تماما. أنت من أحب. أنت من أحببت. أنت من سأحبه حتى أموت. سأرحل وأنت في قلبي. لكني أتمنى أن تنشغل بعملك وتنهي الكتاب الذي بدأته. تترك كل شيء وأنت أستاذ فيزياء لتقول لي فلان كان يمشي بجوارك، فلان تكلم معك؟ فلان نظر إليك؟

- (بتردد) أنا لا أسأل بشأنك. أنا أستفسر عنه هو؟ لماذا رافقك حتى باب الخروج من العمل؟ لم كان يتودد إليكِ؟

يا ربي! كنت متأكدة أنك ستعيد وتزيد في نفس القصة. أنت رجل مختل فعلا. ألا تلمس شعوري العميق بأننا كائن واحد؟. تحب أن أكرر لك كل يوم أنك تنفخ الحياة في روحي وبدني، وأني أعشق صبرك وقبضة يدك حين تعتصر كتفي، وأحبك حتى حين أتخيلك

عندما أتأخر قليلا عن البيت تروح وتجيء في الصالة ثائرا تسأل أين هي الآن؟ وتنعتني في غضبك بكل الألفاظ البذيئة التي تحفظها أنت ولا أعرفها. أحب حتى غيرتك، حماقاتك، أحب عينيك وأذنيك وأنفك وعقلك ومشيتك ضخما مرتفعا عن الأرض قليلا كالطائر. لكن من يصدق أن عالما كبيرا مثلك طفل إلى هذه الدرجة! يا خرابي! كف عن هذا التسجيل. قم بنا دعنا نخرج نتفسح في أي مكان!

ينتهي التسجيل. لكن كان ثمة شريط آخر. ربما أخذته أختها شيرين. أو أنني من حرصي عليه خبأته في مكان لا أذكر أين. سجلته ليلة عيد ميلادها. أذكر أنها كانت تنظر إليَّ بعينين ساكنتين كأنما لا أحد في الدنيا سواي. تستعيد أبياتا من قصيدة:

يا مانعي طيبَ المنام، ومانحي

ثوبَ السقام بـه، ووجدي المتلف

أخفيتُ حبَكم فأخفاني أسى

حتى، لعَمري، كدتُ عني أختفي!

أيمكن لشدة العشق أن تخفي الإنسان كما يتبخر الماء بالغليان؟ أتستطيع العاطفة القوية أن تذهب إلى حد تغيير الكيان المادي؟

انتهت حفلة عيد الميلاد. انصرف الأصدقاء والأقارب. جلسنا وحدنا طويلا نتذكر أشياء كثيرة صغيرة نضحك منها، ثم أخذتنا الحماسة للمستقبل فقسمنا شهور العام المقبل في دفتر ووضعنا برنامجا لما سنفعله كل شهر. جلسنا حتى قالت مع ضوء الفجر إنها تعبت وتريد أن تنام. قلت لها انتظري دقيقة. اتجهتُ إلى المطبخ. رجعتُ بكأس من عصير البرتقال. رأيتها من ظهرها جالسة رأسها محني على سهوم كأنها نجم مكسور لا يستطيع أن يصعد إلى سمائه. وضعت يدي على كتفها برفق. همستُ "حتى عندما تمسين عجوزا تتحركين ببطء تسمعين نصف ما يقال سأظل أحبك وقفتْ كأنما أفاقت. دفعت وجهها وشفتيها إليَّ. رحت أقبلها وأمسد ظهرها بكفي. جرت دموعها على شفتي وهي تشهق ساخنة في حضني.

***

في الصباح اتجهت إلى الكلية بدون نوم تقريبا. في الطريق قلت لنفسي إما إن محبتي قد ضربت عقلي أو أن ومضة الفجر أمر فوق إدراكي. تعمدت أن أفتح مع زملائي في حجرة الأساتذة شتى المواضيع. يتكلمون وأنا أراجع مع نفسي على ضوء ما يقولونه صواب معارفي. تطابقت التواريخ والوقائع. لم أخطئ في شيء حتى ما يخص القضايا

العلمية الدقيقة. إذا لمعت الومضة مرة أخرى فلا بد من التحقق منها. لست أخشى العالم المجهول ولا أعتقد أن ثمة ظاهرة خارج نطاق العلم.

حل المساء وأنا أتوجس الومض البرتقالي. كنت ممتلئا بالمرارة من عجزي عن فهم ما يجري. قالت لي رحاب يوما وأنا أسقيها الدواء "ما يختفي لا يفنى. سنبقى معا دائما. لا يداخلك شك في الفردوس أتكون الومضة دعوة إلى عالم آخر؟. شربت قدحي قهوة ثقيلين. أجبرت نفسي أن أظل مستيقظا حتى انغلقت عيناي من الإنهاك ثم شعرت بالومض البرتقالي على جفني. اعتدلت جالسا. حل عليَّ الذهول حين رأيت أمامي طيفا مجسما بلون برتقالي، بدون وجه. ترتعش أطرافه متوهجة. يسطع ويختفي منه خيطان مضيئان كذراعين. طاشت نظراتي. تيبست عضلاتي. تجمدت محدقا به. قطع الطيف الصمت بصوت مرتجف كرنين وتر "توقعت أنك ستفزع عند رؤيتي. الناس لا يتعرفون على السحابة عندما تغدو مطرا، على الشجرة عندما تصبح حريقا" تلفت شعاعه كأنما يتطلع حوله "لم أعد أذكر. أكانت هذه حجرة نومي أم مكتبي؟. كان ذلك من زمن بعيد جف حلقي. لم أكن قادرا على الكلام، لا أدري إلى أين أوجه بصري. قال "سكنت هذه الشقة قبلك. هنا انقضت أجمل سنوات المحبة إلى أن رحلت المرأة التي كانت حياتها حياتي وزوالها زوالي تمتمت متسائلا "ما أنت؟ ما أنت؟". استطال ضوءه كأنما يشد كتفيه لأعلى

"طيف إنسان. كيف أشرح لك؟ هذا يحدث لكن أحدا لا يصدق. تشف المعادن في النار والبشر في العشق. إذا طال العشق وزادت أشواقه يشف الإنسان حتى يغدو طيفا. الكون عامر بأطياف أرواح عاشقة" بدا على الذهول فمضى قائلا "ألا تشعر أحيانا أن كائنا يرف حولك ويختفي؟ ألم تشعر بهذا ولو مرة وأنت جالس مع أصدقاء أو وحدك؟. العشق هو الذي قادني إلى هذا المكان حيث كنت أحيا معها. الآن أسير في الأجواء كسهم من نور وفي شعاعي ذرات ذكريات من حياتي معها، وفجأة أرى عينيها أمامي، تقولان لي أنا موجودة، فقط اعثر عليَّ. وتنظران إليَّ بأمل، فأهوي من السماء بحثا عن شيء منها. أتفهم هذا؟" هززت رأسي أن نعم. داخلني شيء من الطمأنينة. شعرت أن الطيف ليس غريبا عني. لم أعد أخشاه تقريبا. أخذت أفكر فيما قاله. أيمكن للروح أن تطوف وحدها؟ منذ متى فكر الناس في ذلك "وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"؟!

انكسر نوره وهو يميل ناحيتي "أريد أن أتجول في الشقة، أتنشق عطرها" انفعل وعلا صوته فزاد توهجه صفاء "أتعلم كم من العناصر لابد أن تفور في نفس اللحظة وتجري من أرجاء الكون لتلمع بها نظرة عشق واحدة؟ إننا قد ننسى أي شيء إلا نظرة حب" جلس على حافة السرير فظهر الغطاء مرئيا بداخله وغمغم "من صعقه برق الحب يحيا كالنور

سار على خيطين من ضوء كالساقين إلى باب الحجرة. نهضت. تبعته بهدوء. كان يفتح أبواب الحجرات ينظر فيها إلى أن توقف في الصالة طويلا أمام صورة رحاب "أهذه هي؟" قلت "نعم قال "أكنت تعشقها حتى النهاية؟" قلت "كنت أشعر أنها مثل شجرة فتية واحدة في هذا العالم، وأنا جالس تحتها مستند بقلبي إلى جذعها، أحدق بعينيها الشاردتين فأراني وأعرف لماذا خلقت" ارتجف بشدة كأن الريح تعصف بضوئه. قال "أعلم. أعلم اتجه ناحية باب الشقة وهو يقول "دعنا نخرج إلى المدينة" عبر من الباب من دون أن يفتحه. وضعت قدمي في فردة شبشب على عجل وخرجت وراءه بالبيجاما. تقدمني بين البيوت كقنديل منير. كانت الشوارع ساكنة مهجورة. بلغنا الميدان. رأيت المحلات مضاءة مفتوحة لكن لا أحد. الكراسي أمام المقاهي مصفوفة لكن شاغرة. السيارات ثابتة لا تتحرك. شاهدت شجرة تحتها راكية نار دخانها معلق لا يتبدد. جلس على حجر فبدا كأن على الحجر ثوبا شفافا من النور. قعدت بالقرب منه. غمغم بانفعال "من كثرة ما طلبها دمي جُن قلبي قلت "أعلم كل هذا تطلعت إليه. وجدته يتقلص نقطة نور مبتلة كالدمعة المضيئة. بدا لي أنه يبكي متألما. قلت "لابد أن هناك وسيلة تجتاز بها الروح المسافات المجهولة إلى الروح" لكنه لم يكن ينصت إليَّ. كان يرتجف بشدة كأنما يستنفد نفسه وطاقته في خط من حريق اندلع ثم خمد فجأة أمام عيني. وعلى الفور امتلأ الميدان بالمارة والعابرين وثارت فيه

حركة وضجيج، كأنما يتهدم العالم من حولي. دار رأسي بقوة. تداخلت المرائي أمام ناظري. تلاحقت كالبرق صور وأصوات. وجه يغيم هفيف ريح. امرأة تحت المطر. يا مانعي؟. قبل أن أغيب عن وعيي درت ببصري دورة أخيرة كأنما لأتأكد أن العالم باق كما هو. كانت شرفات البيوت في مكانها، وواجهات المحلات. لكني لم أر رحاب خلا المشهد منها. لم يهف عطر أنفاسها من رئتيها الصغيرتين

***

آخر مرة

الواقفون إلى جواري في انتظار الميكروباص كانوا يتصببون عرقا، أما أنا فأحسست بالنار التي تصبها الشمس تنفذ إلى أصابع قدمي داخل حذائي. أقبل الميكروباص وأعلن سائقه من النافذة "شبرامنت" على الفور انطلق الحشد كقذيفة مدفع إلى باب السيارة قبل أن تتوقف. هجمت مع المهاجمين أضارب بكتفي وأزاحم بصدري حتى دخلت وشغلت مكانا في الكنبة الخلفية. وضعت كيس الجوافة على ركبتي والعرق يسيل من جبهتي. الشمس التي سلقتني في الشارع لاحقتني إلى الزجاج الخلفي تلهب قفاي. على طرف الكنبة جلست بنت ببنطلون محبوك وبلوزة يهف منها عطر في الوسط بيني وبينها جلس رجل بذقن وجهه بلون الطماطم. نظر الرجل إليَّ، ثم بحلق في الشابة وعاد ينظر نحوي نافخا "يا أرحم الراحمين. أف"

أثناء اقتحامنا العربة، تشاجرت امرأتان عند الباب، وتصادف أن الاثنتين جلستا متجاورتين على الكنبة التي أمامي، فسنحت لهما الفرصة لإحياء النقار والنكد. قالت الأولى "أصل ما عدش فيه رحمه خلاص. الناس ح تآكل بعض مصمصت الثانية شفتيها "رحمة إيه يا أم رحمة أنت كمان؟ تبقي غلطانة وتقلي أدبك؟" تدخل ابن حلال بكلمة لتهدئة النفوس وبالمرة راح يلعق بنظراته مفاتن الاثنتين.

التفت السائق إلى الركاب متأهبا للتحرك صائحا محذرا "الأجرة جنيه ونصف. خلاص؟" قال أبو ذقن "اتكل على الله" ونفخ "أف. يا ارحم الراحمين"، ثم حدق بوجهي يوبخني لسكوتي على شيء لا أعرفه، ربما قصد البنت أم بنطلون.

طلعت بنا السيارة إلى الطريق الدائري، وبدأ الركاب يجمعون الأجرة من بعضهم لتسليمها للسائق. رن صوت شاب صعيدي جالس على جنب "لحد المنيب بكم ياأسطى؟" تفجر صوت السائق مدويا "منيب إيه وزفت إيه؟ من الصبح بنقول رايحين شبرامنت؟" هتف الصعيدي يحاول القيام من على مقعده "شبرامنت؟! شبرامنت ده إيه؟ أنا ما أعرفش حد هناك. نزلني يا عم. نزلني صاح السائق بغضب من دون أن يحيد ببصره عن الطريق "أنزلك إزاي بعد ما مشينا المسافة دي؟ عاوز تنزل ادفع الأجرة وانزل" وقف الصعيدي نصف وقفة ورأسه يرتطم بسقف الميكروباص "أدفع جنيه ونصف ليه؟ ده أنا راكب غلط. أدفع ليه؟" زمجر السائق "مش عاوز تدفع مش ح أنزلك!" احتج الصعيدي "هو إيه ده؟ هو اللي يركب غلط يتحبس هنا؟. نزلني بأقول لك. وأخذ يخبط سقف السيارة بباطن كفه. بدا الغضب على السائق الذي ضاعف السرعة مندفعا بالسيارة بين السيارات الأخرى يتنقل من أقصى اليمين لأقصى اليسار ونحن كأنما في صندوق مغلق معبأ بالجنون منطلق إلى مجهول.

بعد كنبة المرأتين المتشاجرتين، كنبة ثالثة، وراء السائق، لاح لي منها جانب من وجه امرأة بطرحة بجوار فلاح. وكنت أرى خلال ثغرة تنفتح وتنغلق بين الأكتاف أصابع يدي الفلاح والمرأة متشابكة بقوة. والمرأة تمسح بيدها الأخرى على يد الرجل، ثم انحنت المرأة ولثمت بشفتيها أصبعا مجروحا من يد الفلاح وغمغمت بشيء ما. فجأة حجب المشهد بدن الصعيدي المتأرجح وهياجه وهو يضرب سقف العربة زاعقا "هو أنا محبوس عندكم ولا إيه؟. يا جدع نزلني. بأقول لك ما أعرفش حد في شبرامنت" هتف رجل ببدلة وكرش "الله يلعن أبو المواصلات واللي اخترعوها" جاءه الرد كالقذيفة من فم السائق "المواصلات مالها؟ الله يلعن أبو اللي بيركبوها" تساقطت الشتائم واللعنات كالحمم في كل ناحية وطاش صواب السائق فضاعف من سرعته. المرأتان أمامي تتشاتمان وتزغد كل منهما الأخرى بكتفها. أبو ذقن يزفر بجواري وينفخ كوحش مهان. الركاب يلعنون أبو السائق والسائق لا يقصر في الرد، وعشرة أصابع متشابكة بقوة تلوح وتختفي. الصعيدي يخبط سقف العربة "افتحوا باب العربية. إيه العبارة؟" وفجأة كاد السائق أن يصطدم بسيارة ملاكي ظهرت في طريقه، لولا أنه انحرف بقوة فتفاداها وتوقف على جنب وأسند جبينه إلى يده صامتا يرتجف. كان واضحا أن تلك نهاية الرحلة. هبطنا واحدا بعد الآخر بيأس إلى صهد الشارع القاتل، وذيول الشتائم واللعنات تصبح أهدأ نبرة كأنما لم تعد شتائم.

وقف الصعيدي في الشارع ينفض طرف جلبابه زاعقا "هي شبرامنت دي بالقوة؟" مكثت لحظة مكاني أستكشف المنطقة التي توقفنا فيها بينما كان الآخرون يتفرقون مبتعدين. بالقرب مني وقفت المرأة ذات الطرحة مترددة وقد رفعت كفها بكف الفلاح إلى أعلى في الهواء، وراحت تقيس ببصرها المسافة من عندنا إلى الرصيف المقابل وتحسب حركة السيارات المسرعة. ما أن لاحت فرصة لقطع الطريق حتى عدلت طرحتها على رأسها بلهوجة وهبطت بالكفين المتشابكتين لأسفل وانحنت تقبل أصبعه مغمغمة كاليمامة "معلش يا أخويا.. آخر مرة نيجي مصر. معلش وخطفت به الطريق جريا إلى الجانب الآخر.

***

جئتِ أنتِ

يزور أمه على الأقل مرة كل أسبوع بعد إصرارها على عدم الانتقال من بيتها رغم عجزها عن الحركة. يحمل إليها فاكهة يناولها للشغالة التي ترعاها، ثم يدخل حجرتها ويقعد على طرف السرير عند قدميها وهي جالسة محنية للأمام تراخت يداها في حجرها كجناحي طائر لا يرفرف. يزورها ولا يملك لها شيئا سوى أن يضحكها، أن يروي لها كل ما يستحضره من مفارقات وطرائف، فإذا لمعت بسمة في عينيها همس لنفسه "الله!" وحتى حين تلقى بجسدها للخلف وتتلمس برأسها موضع الوسادة وتنعس، فإنه يمسد جبينها ويحكي، يتأمل جفنيها المغلقين مثل سحابتين على قمرين متعبين، ويواصل الحكي، فقد هجس في نفسه دوما أن للعقل أثناء النوم صحوته الخاصة، مثل حديقة في ليل، تتنفس، تحت ضوء آخر

دخل حجرتها. جلس. اطمأن عليها. قال لها "صحتك تمام" مازحها بقوله إن منظمي بطولة التنس ينتظرون قرارها إن كانت ستشارك أم لا؟. فحنت عليه بابتسامة خفيفة. حاول أن يطعمها بيده قطعة لحم مسلوق. نهض يدلك قدميها بيديه. خطرت بباله الحكاية التي وقعت منذ عشرين عاما. ذكرها بها فغمغمت بوجه متحير "لا أذكر ألح على تذكيرها ببعض التفاصيل وهو يضحك. سألته بتشكك "أتختلق الحكايات؟" سددت نظرة إلى الماضي تستفسر "هل حدث هذا؟". قهقه مؤكدا عبر

أنفاسه المتقطعة "نعم وحدق فيها بعينين لامعتين ووجه متورد من الانفعال.

بشرود وتعب تحاول بما تبقى من يقظة العقل أن تقبض على ظلال تتلاشى في عتمة. يؤلمه عجزها عن الحركة. يضع يدها بين كفيه ويضغط عليها بحنان.

يحكي لها.

"منذ نحو عشرين عاما، حين كان طالبا في الجامعة، اعتقلوه مع عشرات من زملائه الآخرين، وبعد أسبوعين فاجأه ألم شديد داخل الزنزانة، فنقلوه إلى مستشفى قصر العيني لإجراء عملية"

بسبب كلمة عملية يتوتر وجهها، يفزع قلب الأم لابنها حتى من أمر وقع له في الماضي ولا تذكره. يطمئنها: "كانت عملية بسيطة. لاتقلقي

يحكي لها.

"وصل إلى المستشفى بحراسة شاويش، وعلى الفور أخلوا له مكانا في حجرة معزولة في نهاية ممر طويل. دخلها ومن خلفه الشاويش يدير عينيه في المكان يتفحصه، وعندما اطمأن إلى أنه ليس بالحجرة سوى شباك عليه قضبان جرجر كرسيا وثبته قرب الباب وحط عليه. أما الشاب فأرخى حزام الحقيبة الصغيرة المعلقة على كتفه وتركها على كومدينو استدار وألقى نظرة على السرير المقابل. رأى رجلا يناهز الأربعين. رأسه مرفوع

على وسادة ويداه معقودتان فوق نصف صدره يتنفس بصعوبة ويدير عينيه بقلق بين الشاب والشاويش. أخذ الشاب يتأمله، فقبض الرجل على طرف الملاءة وسحبها مختفيا بالكامل تحتها. اتجه الشاب نحو الشباك الصغير. في الصمت المخيم كانت تصله صافرة حشرجة أنفاس الرجل من تحت الملاءة. سمع سعلة شديدة فالتفت إلى الرجل "سلامتك. تحتاج أي شيء؟" لكن الآخر مال على جنبه ببطء دون أن ينطق وجعل ظهره للشاب ووجهه للحائط. خمن الشاب أن الرجل يخشى الكلام معه مقدرا أنه "خطر مادام ثمة شاويش يحرسه"

هنا تسأله باستنكار وقلق "أنت خطر؟!" يقول "نعم تستغرب "أكنت هكذا من صغرك؟" يقول مبتسما "طوال عمري كنت شقيا يا أمي تمط شفتها بعدم تصديق. تسأل "أتختلق الحكايات؟"

يحكي لها.

"بعد ساعة من وصول الشاب أجروا له العملية الجراحية. ومر يوم، والثاني، والثالث، كان الرجل خلالها يطل برأسه من تحت الملاءة ساعة الطعام فقط. يأكل ويرسل للشاويش نظرات متلاحقة بما معناه "كما ترى أنا لا أكلم الشاب ولا علاقة لي به" حين ينتهي من الأكل يتنهد بأسى ويختفي تحت الملاءة. ثم جئتِ أنتِ..

هنا تنتبه الأم. تشتعل عيناها بالنظرة الصافية القديمة، كأنما انتفض فيها العصب القوي المرتبط بكلمة "أنتِ" تفكر "أنا؟ كيف جئت؟"

يحكي لها.

"ثم جئتِ أنتِ.. حين فوجيء الشاب صباح اليوم السابع بيد تدفع باب الحجرة، وبأمه واقفة تسد فتحة الباب كشراع مركب. كان الشاب قد تمكن من تهريب رسالة لبيته بأنه بمستشفى كذا حجرة رقم كذا مع مريض آخر. لكنه لم يتوقع أن تصل الجرأة بأمه حد زيارته دون أن تبالي بأن الزيارة ممنوعة. نعم. جئتِ أنتِ..

تفتح عينيها بدهشة "أنا؟" يقول "نعم"

يحكي لها.

"كتم الابن شهقة المفاجأة حين رأى أمه واقفة وهي تضم إلى صدرها كيسا ورقيا يبرز من حافته برتقال وأصابع موز وهي تقلب عينيها في الحجرة بنظرة من يفتش عن وليده في اللهب"

هنا ترفع رأسها كأنما فوجئت بظهورها في حكايته. تضيق عينيها العجوزتين الصافيتين مثل نسر نسي التحليق. تقول "هل حدث هذا؟" تسكت مبهورة بامرأة تتخيلها لكنها لا تتذكرها.

يحكي لها.

"هب الشاويش واقفا يصدها. قالت "جئت أزور سي خلوصي وأومأت برأسها ناحية سرير الرجل الآخر! تفحصها الشاويش بشك ثم عاد لجلسته وللجريدة التي بيده. توقفت بين السريرين في منتصف

الحجرة. ألقت نظرة على ابنها وحبست دموعها. جلست على حافة سرير الرجل الآخر ووضعت كيس الفاكهة بينها وبينه. خاطبت الرجل لكن وهي تحدق في ابنها "والله ياسي خلوصي العائلة كلها تسأل عنك وفي غاية الشوق" ثبتت نظرها على إبنها "في غاية الشوق يا حبيبي أدرك الرجل أنه المقصود بخلوصي وأنه أصبح شريكا في تدبير زيارة ممنوعة، فأخذ يائسا ينظر تجاه الشاويش لينبهه لما يجري. استدارت الأم بجسدها ناحية ابنها "وأختك تبلغك سلامها" سحب الرجل الملاءة على رأسه واختفى تحتها. أمسكت بالملاءة وأنزلتها بالقوة لأسفل "وأبوك يقول لك إذا احتجت فلوس اكتب له" شد الرجل الملاءة. سحبتها ناحيتها. شدها، سحبتها. وظلا يتجاذبان طرف الملاءة بسرعة متزايدة وهي تكرر "ياعين أمك ياضناي" فجأة نهضت واندفعت إلى سرير ابنها تضمه وتبكي هاتفة "يا حبيبي يا ابني

تحدق فيه. تحاول أن تتذكر تلك العاطفة الساخنة. تحاول أن تقتطف باقة المشاعر الحارة. تحاول أن ترى هل يمكن لوهج إحساس انقضى ولا تذكره أن يتقد مجددا؟. شيء يمتد مطمورا بين الأزمنة ولا يندلع. تؤرجح رأسها يمينا ويسارا وفي عينيها أسف لأنها لا تستطيع أن تتذكر اللحظات التي كان فيها قلبها عامرا بالدفء والشجاعة.

يحكي لها.

"أفاق الشاويش على ما يجري ربما بسبب كلمة "يا ابني التي لم تكن لتليق بسن الرجل الآخر، أو بسبب اللوعة في صوتها، فهب من مكانه

يجرجرها من كتفها إلى خارج الحجرة. وقفت في فتحة البـــاب تـــصيح ناحية ابنها "ولا يهمك. مسيرك تخرج" زعق الشاويش فيها "عيب قوي كده ياست" خرجت مستمرة في الصياح "عيب؟! ماشـــاء الله علـــى العيب" وارتها الردهة وصوتها يتردد من بعيد "قال عيـــب قـــال .عـــاد الشاويش إلى مقعده وهو ينفخ "قلة أدب" وعبرت وجه الرجل الآخـــر سحابة خجل من أنه حاول فضح حيلتها بدلا من أن يداري عليهـــا، ثم قال بصوت منهك "لايصح ذلك"!. حلت الدهشة على ابنها، فهي المرة الأولى التي يسمع فيها صوت الرجل. قال الآخر "أقول لا يصح أن يتفوه الشاويش بمثل هذه الكلمات" وابتسم الرجل "لكن من أيـــن جـــاءت الوالدة باسم خلوصي هذا؟" وضحك، فقهقه ابنها ومد كفه في الهـــواء يضرب بها كف الرجل استحسانا. تبادل الاثنان نظرة طويلة عميقة"

فردت أمه جسدها متعبة. نهض وأحكم الغطاء حول قدميها. سألته بصوت غاف "هل حدث هذا حقا؟" قال "نعم" قالت "وأنا جئت إليك والزيارة ممنوعة؟" قال "نعم أدارت رقبتـــها إلى الناحيـــة الأخـــرى وسرحت ببصرها. "وتشاجرت مع الشاويش فعلا؟" ضـــحك "نعـــم"! سألته قبل أن يأخذها النعاس تماما "ألا تختلق هذه الحكايات لتضحكني؟" قال "لا، أنتِ جئتِ.. فعلا جئتِ"

***

أحبُ " ساراماجو

كنا -- أنا وحلمي - نشرف على الصفحة الثقافية بجريدة "الوحدة" نجلس إلى مكتبين متواجهين في حجرة واسعة تطل نافذتها على شارع عريض. نقوم بكل ما تحتاجه الصفحة ماعدا تغطية المؤتمرات خارج العاصمة. معنا، لكن على كرسي قرب باب الحجرة "رمضان" ببدنه الضخم، ورأسه الحليق على الزيرو، يتصفح مجلات متثائبا إلى أن يطلب منه أحدنا شيئا.

بدأت القصة بالتكليف الذي تلقيناه حينذاك بتغطية مؤتمر في إحدى المحافظات البعيدة. كالعادة اتصلتُ بشاب من قسم الأخبار كنا نعتمد عليه في تلك السفريات. قيل لي إنه في إجازة لظرف طارئ. علق حلمي "ضاعت عليه المئة جنيه بدل السفر ووضعنا في ورطة" تطلعت إليه أستكشف إن كان قد يقبل هو بالسفر. عاجلني بقوله "لا يا عم! لا هذا مشوار يحتاج عافية" كنت أعلم أنه يكره فنادق الأقاليم فلزمت الصمت.

رمضان الذي اعتدنا تدخله في كل شيء، واعتاد هو صمتنا لأن ملاحظاته كانت في معظمها دقيقة، مط شفته السفلى. هز رأسه باستهانة "وماذا يكون المؤتمر يعني؟ ناس يتكلمون. نرسل أي شخص والسلام. مشكلة يعني؟" وقهقه بصوت مدو كأنما يقف في حقل مفتوح. سكت. استند بباطن قبضته إلى حافة مكتبي وأعلن ما بين الجد والهزل كأنما يجود علينا بهدية "هاتوا المئة جنيه بدل السفر وأذهب أنا" الفكرة بدت غريبة. لم أستوعبها، مثل قطعة خشب يدفعونها لفم إنسان على أنها طعام فتعطل

حواسه لحظة. لمح رمضان الحيرة على وجهي فتراجع للخلف وأولاني ظهره خارجا من الحجرة قائلا "مؤتمر؟ يعني نخاف يعني؟" عاد بعد دقائق يحمل فنجاني قهوة. وضعهما أمامنا بصمت لكي لا يشوش علينا استيعاب اقتراحه المفاجئ.

رمضان الدي يناهز الثلاثين ساع، لكنه يقوم بأي شيء. ذكي بالفطرة وطموح. حاصل على دبلوم متوسط. ما لا يستطيعه يظل وراءه بإصرار حتى يتقنه. خلال عام واحد من عمله معنا أصبح قارئا للصحف يرمي بملاحظات دقيقة على ما ينشر. يسخر من تبدل مواقف الكتاب، بل وصار خبيرا في الكمبيوتر، يفتح الملفات ويطارد الفيروسات. لكن أيعني كل ذلك أن نرسله باسم الجريدة إلى مؤتمر؟.

تبادلنا أنا وحلمي نظرة. وبدا أن حلمي حسم أمره فقال لرمضان "طيب.. عندك بدلة أنيقة؟" على الفور اندفع رمضان يوسع الثغرة التي انفتحت أمامه مؤكدا "عندي. وقميص وكرافت أيضا. ثم أنا سأحمل مسجلا صغيرا، أسجل عليه كل ما يدور، وممكن كاميرا. وإذا سألني أحد أقول من الجريدة وخلاص. مشكلة يعني؟" ولمعت عيناه بأمل يشجعنا على قبول الفكرة. تظاهرت بأني متردد، بل كنت مترددا فعلا. قلت له "لكن إياك تفضحنا!" صاح بلهجته المطوطة "كيف؟ وكل ما سأقوم به الضغط على زر التسجيل؟. ماعدا ذلك أنتم تعرفون رمضان يسلك مع الجن الأزرق" استراح حلمي قال له "وإذا سألوك عن أي شيء أنت صحفي. أديب". هبط رمضان برقبته بين كتفيه. وسع عينيه باستنكار

"صحفي ماشي. لكن أديب؟ كيف يعني؟!" هونت عليه "أنت تعرف أسماء طه حسين والحكيم. ما المشكلة؟" شعشعت العملية في عقل حلمي. قال "ما عدا ذلك قل أنا أحب ساراماجو"! مط رمضان بوزه باشمئزاز "صاراماطو؟! كيف يعني؟" ضحك حلمي "ليس صاراماطو، بل ساراماجو، أديب برتغالي زام رمضان مدركا أن الكلمة لا تمس كرامته. قال رافعا حاجبيه "واجب أتذكر الاسم.. احتياطا"

قبض رمضان المئة جنيه وسافر. عاد إلينا بعد يومين. الحق كدنا لا نعرفه وهو داخل علينا بالبدلة، رأسه مرفوع، صدره مفتوح، وتحت إبطه رزمة كتب. وضع أمامنا جهاز التسجيل، وصاح بشمخة "كل كلمة نطقوا بها. معي أيضا صور للمتحدثين في المؤتمر. بالمناسبة بعضهم أصرعلى التقاط صورة معي للذكرى"

خطف رمضان بحالته الجديدة اهتمامنا. سألناه عن التفاصيل بتشوق فحكى كل شيء. قال إنهم استقبلوه بترحاب (أراد أن يقول بتقدير)، وإنه تحين الفرص خلال الأحاديث لتمرير عبارة "بالمناسبة أنا أحب ساراماجو. إنه أديب عظيم قهقه بطريقته الصاخبة مضيفا "مرة واحد منهم سألني ومن يكون ساراماجو؟. فأجبته بدهشة - خير ياعم؟! ألم تقرأه؟!" انتبه حلمي إلى رزمة الكتب. سأله "ما هذا؟ أبحاث المؤتمر؟" سحبتُ كتابا من الرزمة وقرأتُ بصوت مرتفع إهداء على الصفحة الأولى "إلى الأديب الكبير رمضان السيد. خالص التقدير لإبداعه" نظرتُ إليه، ورأيتُ للمرة الأولى سحابة خجل تمرق في وجهه، لكنه ما لبث أن ثار

بغضب "أهداني إياها بعض الأدباء ما إن علموا أني صحفي في جريـــدة. ماذا أفعل؟ كان لابد من سبك الدور غادر الحجرة بعصبية. في صباح اليوم التالي رأيناه من جديد بالقميص والبنطلون القديمين. تفادينا التطرق لموضوع المؤتمر. بعد أسبوع أخذت مظاريف مغلقة تصل باسم رمضان. كان يفتحها أمامنا ببطء ويخرج منها كتبا ويتجـــه إلى مقعـــده ببهجـــة مكتومة يتصفحها. أحيانا يقول بحيث نسمعه "والله هذا الشاب موهوب. أسلوبه حلو بالتدريج صار رمضان يستفسر منا عـــن كتـــب بعينـــها ويستعيرها لقراءتها.

بحلول صيف ذلك العام تركنا رمضان. التحق بإحـــدى الجرائـــد صحفيا تحت التدريب، و لم نره زمنا طويلا، إلى أن سمعـــت في إحـــدى الجلسات أنه صار مسئولا عن ملحق أدبي في صحيفة رائجة. بـــالأمس كنت بالقرب من مقر تلك الصحيفة. ساقني الفضول لزيارته. استقبلني في مكتبه بترحاب وتهليل. كان عنده شاب جالس بأدب على طرف كرسي بيده ورقة. نصحه رمضان أمامي قبل أن يصرفه "اقرأ ســـاراماجو ثم استدار رمضان نحوي وهو يضيف بنظرة مركزة وببطء كأنما يبثني رسالة خاصة "وماركيز انصرف الشاب متراجعا بظهره. صرنا وحدنا. فانطلق رمضان يحدثني عن مشاريعه الأدبية.

***

الحب والفولاذ

ذهبتُ مبكرا قليلا عن موعدي. قصدت نصبة شـــاي أم الـــسعد، واسترحت في ظل تكعيبة العنب الذي يغطي بقعة صغيرة. جلست علـــى حجر أشرب الشاي وأرقب بطرف عيني موقف السيارات القادمة مـــن عزة. المفروض أن تكون ريم هنا بعد نصف الساعة على الأكثر.

الجو حار لم يكسره هواء بحر رفح الذي يسري من بعيد. في نقطـــة عالية من السماء حومت طائرة. ومض فولاذها لحظة في شعاع شمـــس ثم انحرفت مرتفعة واختفت في طبقات أعلى. ترامت أمامي البيـــوت الـــتي برزت أسياخها وأخشابها في الهواء. خيام قعد أصحابها أبصارهم محنيـــة على الأرض. عيال عراة يتواثبون حول موتوسيكلات محطمة ومعوجـــة. أشجار زيتون متباعدة محترقة. لا شيء ينجو من الطائرات المغيرة.

ها هو ميكروباص عتيق يلوح مقرقعا، اقترب وتـــشبثت عجلاتـــه بالأرض متوقفا. هبط رجل عجوز ببطء معتمدا على ذراع شاب يحمـــل بيده الأخرى أشعات طبية. تسرسبت بعده بضع نساء تضم أذرعهن إلى صدورهن زجاجات زيت ومعلبات أطعمة. أخيرا تقدمت ريم برأسها من فتحة الباب وظهرها محني. هبطت وفردت طولها وبان قوام ابنة الـــسابعة عشرة ملفوفا مشدودا في فستان أبيض تناثرت فيه زهور برتقالية. تلفتت حولها بنظرات متوترة بين الطفولة والصبا. برق في عينيها اللامعتين قلق.

اقتربت منها، وكدت أنسى وأرفعها من خصرها بيدي الاثنتين لأعلى وأقبلها كعادتي فيما مضى لولا حمرة الخجل التي كست وجهها بطيف اعتذار نبهني إلى أنها صارت آنسة. قالت وهي تصافحني "عم غسان! كيفك؟" قلت "كيفك أنتِ؟" قالت "تمام. تمام" رفعت حاجبي وأشرت بعيني إلى الطريق. سرت أمامها. مشت تقريبا بمحاذاتي. أدبُ على الأرض بجوارها لكن لا أسمع لها صوتا إلا حين تضرب بيدها طرف فستانها إذا رفعه الهواء. أمشي بين الخيام وريم تنداح في روحي مثل نغمة أعراس القرى "سبل عيونه ومد إيده يحنوا له، غزال صغير كيف أهله سمحوا له؟" النغمة مفرحة في الأصل لكنها ترددت داخلي مبطئة شجية.

دنونا من البيت المقصود وتطلعت وراء كتفها فلم أر أحدا. طرقت الباب طرقتين. فتح ياسر، دخلتُ ومرقت هي في أعقابي. أغلق ياسر الباب خلفنا. وقفنا ثلاثتنا في فسحة البيت، ولم يكن بها شيء سوى حصيرة مفروشة وراكية شاي وصحون صاج.

قال ياسر "أهلين" وتردد بصره بيني وبين ريم وهو يشير إلى أكواب وملاعق قرب الحصيرة كأنما يدعونا لشيء. هز رأسه بحسم قائلا "أنا لابد أن أنصرف. عندي شغل حدق في وهو يدور سبابته حول أذنه "خليك معهم على المحمول" أعطانا ظهره وقبل أن يخرج أدار رقبته نحونا "ستجدونه معكم بعد نصف ساعة أوساعة على الأكثر. يعطيكم العافية"

خرج. شعرت بها من دون أن أنظر إليها ترتجف. كنت أعرف والدها جيدا، وأتردد عليهم في حي الجنينة إلى أن توفى، فأحجمت عن زيارتهم لأن أمها صارت وحدها بدون رجل، ومرت سنوات وإذا بريم تستدل على عنواني وتجيء إليَّ، وفاجأتني بأن الطفلة التي كانت تثب إلى عنقي تقبلني كبرت هكذا. حينذاك طلبت مني بكلمات مقطومة المساعدة في عبور شاب مصري إلى غزة! أدهشني رجاؤها وسألتها ما بين الجد والضحك "شو معه؟ سلاح؟ مخدرات؟ بضاعة؟" حركت كفيها أمام وجهي هاتفة "لا عمو.. لا.. ما عنده شيء. أنت عارف المعبر مقفول. صمتت وأحنت رأسها منكمشة. قالت بصوت يذوب كأنما تتلاشي داخل قطعة سكر "يحبني وغمرني من كلمة "يحبني سلام عجيب، كأن العالم قد تصالح داخلي. بعد لحظة طقطقت بلساني آسفا "لكن يا ريم تعرفين قصة المرور من الأنفاق ليست سهلة!"

نظرت إليَّ تلك النظرة المعذبة الراجية التي يرسلها نحوك شخص لا أمل له سواك، ودمعت عيناها. قلت لها "ولا يهمك. نعملها" كادت أن تثب مهللة من الفرح "صحيح عمو؟ صحيح؟! بتعملها؟" قلت "صحيح ونصف، ونعمل أبوها كمان" رتبنا العملية من حيث التوقيت والمكان والأشخاص ليعبر شوقي إلى غزة. مضى كل شيء بدقة. الآن لم يبق إلا أن يظهر شوقي.

قصدت الحجرة التي توجد في منتصفها فتحة النفق المنتهى بفتحة مماثلة في رفح المصرية. فتحت بابها ودخلتُ و ريم ورائي. لم يكن بالحجرة شيء سوى ثلاثة مقاعد خشبية قصيرة بدون أذرع أو ظهور، ومعاول مرمية على جنب. في المنتصف فتحة النفق مثل فم الأرض. جلست ريم عند حافة الفتحة وأرسلت بصرها إلى العتمة. من تلك الظلمة ينبغي أن يظهر شخص ما، عزيز عليها لتأتي إلى هنا، غالية عنده ليخاطر بحياته زاحفا نحو الساعة في نفق بأقل القليل من الهواء.

خرجت أحضر شايا ورجعت فوجدتها مازالت تحدق في فتحة النفق ثم سألتني:

- تقريبا بعد كم من الوقت يصل؟

قلت: بعد أقل من نصف الساعة يكون هنا. لا تقلقي. فجأة ستجدين شوقي معك. ووميض في مخيلتي برق الفولاذ في الشمس، ولأخفى قلقي سألتها:

- وين يدرس؟

انفرجت شفتاها عن بسمة صغيرة:

أولى آداب جامعة القاهرة.

- ولد طيب؟

هزت رأسها مرتين: بلى. طيب جدا. وأطرقت تحدق في فم الأرض.

- وكيف تعرفت به؟

- من الانترنت. الأول كنا نكتب لبعض، وبعد ذلك صرنا نتشاوف عن طريق كاميرا ويب. سنتين نعرف بعض. قال لي تعالي علـــى الأردن ومن هناك على مصر. لكن أمي قالت لا أزوج ابنتي الوحيدة بـــدون أن أرى الشاب. قال سآتي أراك وأخطبك من أمك.

ضحكتُ: يا الله!

ابتسمت بخجل: تسخر منا أنت يا عمو؟

قلت: لا لا أعوذ بالله. أتظنين أني ولدتُ هكذا بشارب غليظ؟ أنا أيضا كنت شابا ذات يوم. بل وكنت جميلا! ورسمتُ الدهـــشة علـــى وجهي واضعا يدي على جيبي كأنما سأخرج شيئا: "عندي صور تثبـــت كلامي! تشوفي؟"

ابتسمت ريم كالأطفال وهم يعلمون أن ما تحكيه لهـــم لم يحـــدث لكنك فقط تريد أن تمتعهم بحكاية فينظرون إليك مبتسمين.

خطوت بعيدا عنها قليلا. أخرجت المحمول من جيبي وجمعت رقـــم مصر. رد عليَّ حسين. قلت له "كيف الأخبار عندكم؟" قال "الحمد لله. الحاجة راحت خلاص قلت "بقى لها قد إيه؟". قال "نص ساعة" سألته

"وأخباركم الأخرى طيبة؟" قال "ماشي الحال" ودعته. نظـــرت لـــريم "خلاص هانت. شوقي في الطريق. قريب يكون هنا"

نظرتْ بقلق. قلت مطمئنا إياها "لا تخافي. كثيرين يأتون، وكثيرون يذهبون"

جلسنا نحو ثلث الساعة نتذكر والدها، وحي الجنينة الذي ولدت به، والأيام التي كنت أزورهم فيها، لكن عقلها لم يكن معي. فجأة، أحنـــت رأسها على فم الأرض المفغور تتنصت. اتسعت عيناها ونظرت نحـــوي بانفعال:

- عمو.. كأني سامعة صوت؟

تنصتُ أنا أيضا:

- نعم. هذا صوت بدن وأنفاس. شوقي يقترب.

أخرجت المحمول وكلمت حسين "الحاجة وصلت أبو على. دقـــائق وتكون عندنا. الله يعطيكم العافية"

ارتعش رأس ريم وجرت دموعها. يا الله على البنات!. مرت دقائق طويلة ثقيلة، ثم هتفت ريم مذهولة:

- أسمع أنفاسه! والله أسمع أنفاسه!

أرهفتُ السمع. نعم. إنها أنفاس القادمين. أحنت ريم رأسها على الفتحة صائحة: شوقي! خلاص ياشوقي!

ارتفع الصوت يشق الأرض ليخرج من التراب والظلمة. وما لبثت أن ظهرت يد وتشبثت أصابع اليد النحيفة بحافة الفتحة. وطلع وجه متعرق بعينين تلمعان من الخوف والسعادة وفم يعب الهواء دون توقف. أمسكت ريم يد شوقي بيديها الاثنتين تجذبه إليها بقوة حتى برزت شرايين ساعديها بدمائها الوردية. وفجأة كأنما اطمأنت إلى وجوده أرخت ذراعيها لحظة، تتأمل الوجه المصري القمحي المنهك ببسمته الصغيرة المرتجفة. لحظة تبادل فيها الاثنان النظر بعمق ولهفة.

·في تلك اللحظة، تناهي إلى سمعي أزيز الفولاذ في السماء. في أقل من ثانية صار الأزيز هديرا قويا. شلني الصوت المقترب. تحجرت في مكاني بعيدا قليلا عن فتحة النفق. تطايرت الصور والأصوات من حولي كالشظايا بسرعة جنونية. قرقعة شريط الدعامات الخشبية في النفق وهي تنهار. يدا شوقي تقبضان على الهواء وهو ينظر للأعلى بذهول. ريم تصيح. اندفاعي لأشدها وأرفعها. الجدران تتهاوى علينا. الوجه القمحي يشهق ويغص طلبا للهواء. العارضة الحديدية تسقط من السقف على ساقي. الدم يتفجر من وجه ريم وفمها. عيناي تغلقان على يديها تمسكان باستماتة بكتفي شوقي.

***

رقدتُ ثلاثة أسابيع في المستشفى. خرجت بعدها معتمدا على عكاز خشبي ولزمت بيتي عدة أيام. تحسنت صحتي. لكني لم أستطع العودة لعملي في حفر الأنفاق. حاولت أن أعمل تحت إلحاح الناس وقولهم مرارا "الشغل شغل يا أبو عيسى مرتين، ضربتُ فيهما الأرض بمعولي فخرج لي من تحت التراب الوجه القمحي والبسمة المرتجفة.

انقضت ثلاثة شهور إلى أن قررت صباح اليوم أن أتجه إلى البيت حيث كان النفق. لم أجد هناك شيء سوى كومة كبيرة من الأنقاض. أخذت أنكش الأرض بطرف عكازي بحثا عن شيء ما تبقى منهما. وجدت تحت إطار نافذة مخلوعة دفترا صغيرا اسودت أطرافه من الحريق. فتحته. راحت صفحاته تتساقط رمادا أمامي. الصفحة الأخيرة نجا نصفها بعبارة واحدة "وحتى بلا فم سأظل أهتف باسمك، وبلا قدمين سأشق دربي إليكِ. شوقي

الدفتر بين يدي. رأسي محني عليه. كتفاي وبدني كله يرتج من النشيج. أبكي كما لم أبك أبدا. تتراءى لي صورة أمي، وبيتنا في رام الله، وطفولتي، وطابور أقاربي المهاجرين بمفاتيح بيوتهم، وحياتي أمامي مزق صغيرة تبعثرها الريح، وريم تنداح بداخلي مثل نغمة مفرحة في الأصل لكنها تتردد مبطئة شجية.

- ديسمبر ٢٠١٠ – أخبار الأدب

***

شباك

قال لها "نفتح الشباك؟" غمغمت نصف نائمة "لاء. الدنيا بـــرد" قال بأمل "خلي الهواء يدخل. الحجرة خنقة" نفخت وهـــي مـــستيقظة تقريبا "يووه يا عدلي اختلفنا حتى على الهواء!" أولته ظهرهـــا ولـــوت ذارعها وراءها تحشر الغطاء وتغرزه بينهما.

راح في الصمت والعتمة يبحلق في السقف. تراءت له صور أحداث وأمكنة وأناس بلا رابط. طفت عبارة همس بها وجه غائم جميل "مشروع قومي

كان ذلك منذ سبعة أعوام تقريبا حين تلقى مكالمة على المحمول من صوت أنثوى تماسك فيه دفء وتهذيب "صباح الخير يا أفندم. أنا هالـــة فخري. أعتذر إن كنت أتصل بدون سابق معرفة. لدي مشروع قـــومي للترجمة كنت أود أن أناقشه معك" صادته شباك الصوت وتمنى ألا يخرج منها. قال يداري انجذابه للصوت بنبرة محايدة "بالطبع هذه قضية مهمة"

اتفقا على لقاء في جروبي طلعت حرب. تعمد أن يكون هناك أبكر من الموعد ليحيطها بنظرة شاملة في إقبالها. بعد قليل هلت شابة مكتنزة، متوسطة الطول، في نحو الخامسة والعشرين. وقفت في صالة المحل تتلفت حولها حتى لمحته فرفعت حاجبيها لأعلى مبتسمة متجهـــة إلى منـــضدته.

صافحها. تضاعف إعجابه حين شدت على يده بنوع من الاحترام لنفسها. طلب قهوة، وطلبت عصير برتقال، فأضاف إليها قطعة جاتوه.

بنظرة مركزة ونبرة هادئة استهلت حديثها بأنها أنهت "ماجستير كلية الآداب إنجليزي جامعة القاهرة، وتعد الآن للدكتوراه، وإن لديها حلما بإقامة مشروع قومي للترجمة. لم يعقب بكلمة. كان مأخوذا بالجاتوه وهو يذوب بين شفتيها المكتنزتين. تأملته في صمته وأضافت "تبلورت الفكرة عندي بعد أن قرأت مقالاتك عن دور الترجمة" أحس بأن عينيها الواسعتين العميقتين قد ضربتا سورا حوله وأنه مثل حصان وحيد أعزل ومحاصر. قالت "لحظة" أحنت رأسها على حقيبتها الصغيرة الأنيقة وأخرجت قلما ودفترا وورديا فتحته على سطح المنضدة تحت عينيه، وأخذت تمر برأس القلم على ملاحظاتها المسجلة تشرح كل نقطة. غرز أصبعه في خده وأرسل بصره للأمام بمظهر المنصت بينما كان يسبح بعيدا مع موج عينيها. قال "بلا شك هذا مشروع مهم لابد من تنفيذه" واصلت مطمئنة "خاطبت عددا من المفكرين فأعربوا عن ترحيبهم رجعت بظهرها إلى مسند الكرسي. استرخت. والآن، تطوقه بنظرة مشبعة بالمودة والعطف.

اتفقا كخطوة أولى على عقد مؤتمر لبحث المشروع. تكرر اللقاء لبحث التفاصيل. عند افتتاح المؤتمر جلست بجواره، وألقت من المنصة خطابا قصيرا جادا وطموحا. وشارك أساتذة أجلاء من الحضور في تعديل

وتطوير المقترح. وانفعل د. فاروق حميدة وهو يلوح في الهـواء بـأوراق بحث كامل داعيا إلى العمل والإنجاز مذكرا بأنه أفنى حياته في الترجمـة. وكان لابد أن يلتقيا أكثر من مرة لتدارس المقترحات حتى صـار لهمـا خلال أربعة أشهر ركن خاص في جروبي اعتادا الجلوس فيه. وحين قبض على كفها بقوة ذات مرة اكتفت بابتسامة عتاب مناح.

انقضت على المؤتمر بضعة شهور انتهت بالزواج. لم يكن ثمة شـيء ليعطل ذلك، كانت عنده بالفعل شقة فاخرة جاهزة، وسيارة، وشاليه في العين السخنة، كما أن دخله الشهري كبير حتى أنه أصر على إعفائها من العمل فلم تعترض وطوقت عنقه بذراعيها قائلة "أعلم أنك تريدني كاملة لك ولبيتنا"

في شقتهما بمصر الجديدة كان ثمة صالة استقبال مستطيلة واسـعة، وعندما يستضيف أصدقاءه المقربين تجلس بينهم كالزهرة الندية. كل شيء فيها مرتب وجميل، نظراتها وحركاتها الرشـيقة وهـي تقـدم الـشاي والبسكويت ولا تترك أحدا بدون التفاتة أوابتسامة أو إنصات. من وقت لآخر كان أحدهم يتذكر المشروع القومي، فيستفسر بحسن نية عمـا آل إليه. حينئذ تمر في عينيها الجميلتين سحابة خفيفة من الهم والأسف وتقول "لازم نعمل مؤتمر ثاني ونواصل"، ثم تلقي نظرة على عدلي تنشد تأييـده "أليس كذلك ياعدلي؟" مع مرور الوقت نسي الجميـع تقريبـا ذلـك المشروع، فإذا حدث أن كلمة ما استدعت الموضوع كانت تنهض لتتجه

إلى المطبخ قائلة "سأطلب من البنت الشغالة أن تأتي لكم بالعشاء" ثم اندثر ذلك الحديث بعد مولد طفله الأول ثم الثاني وبعد البدانة التي ظهرت عليها.

اتخذت الحياة مجراها اليومي الاعتيادي، في بعض الأحيان كانا يتشاجران، في أوقات أخرى يشعران بالملل، وكانت هناك لحظات مفرحة. لكن لماذا يلح عليه الآن وهو يحدق بسقف الحجرة، بعد سبع سنوات، التفكير في حقيقة المشروع الذي أرادت إقامته؟ يعزي نفسه بأنه على أية حال "مشروع"، ساهم فيه بحسن نية الدكتور نسي اسمه الذي لوح في الهواء منفعلا بأوراق بحث كامل.

يحاول أن يستغرق في النوم. يتقلب. يتحسس الغطاء الذي غرزت أطرافه كالحدود بينهما وتحوم نظرته نصف نائمة حول الشباك.

***

جلباب أزرق

جلس ساهما رأسه محني قبضتاه في حجره وساقاه مفرودتـــان علـــى الحصيرة. تمتم "الله يرحمك ياسعد" ربتت عطيات الواقفة بجواره علـــى كتفه. زفرت شاخصة إلى الفراغ ثم اتجهت إلى داخل الدار حيث الحجرة الوحيدة المسقوفة بعروق الخشب قائلة "وما تنساش الجلابية"

برزت الجلابية الزرقاء في مخيلته بالأزرار البيضاء عند الرقبة والخطوط الفضية. لم يهنأ بها جودة. ارتداها مرتين فقط، ثاني يوم شرائها وطاف بها البلد قبل المغرب سعيدا بخجل. ومرة في العيد. ولما مرض سعد واســـتلزم الأمر سفره لمصر أعارهم جودة الجلابية زاعقا من خلال أسنانه الضخمة "هي الجلابية ح تطير يعني؟"

دمعت عيناه "الله يرحمك ياسعد" ما إن اشتد عوده حـــتى شـــرع يعافر لأجل اللقمة، فلم يعد يراه إلا خطفا وهو يلقي السلام مهـــرولا عاش في كوخ من الخوص على طرف أرض أبو اسماعيل، يشتغل مقابـــل السكن ساعتين يوميا، يستريح شوية ويسرح على رزقه في أي مكان. لم تبق منه في الذاكرة سوى صور معدودة لأن حياته كانـــت دورانـــا في ساقية، والثور لو لف بالساقية مليون مرة تمسي كلها صـــورة واحـــدة. خرج من الدنيا كما دخلها عريانا لا امرأة تبكيه ولا ولد ينعيه. الأعمار بيد الله. صحيح بني آدم مثل الدخان لحظة ويختفي.

عادت عطيات بيدها كوب شاي وضعته أمامه. قالت "بكره من الفجر تطلع على مصر تخليهم يدفنوه في مقابر الصدقة. ما فيش فلوس نجيبه البلد" قال خليفة بصوت هامد "قبر مين اللي ماحدش زاره؟ قبر الغريب البعيد عن داره" مصمصت شفتيها" إحنا معانا وقلنا لاء ياخليفة؟" عقدت يديها على بطنها بيأس. أكدت "وماتنساش الجلابية" الجلابية؟!

حين مرض سعد سقوه نعناعا مغليا. طحنوا له رأس ثوم مع ليمون. لم يتحسن. ظل يئن على نور لامبة جاز وحده. حن عليهم أبو اسماعيل بفرخة التهمها سعد في دقيقة. بعد شوية رجع يعض على شفتيه المشقوقتين. يضغط على بطنه. يرفع ساقه ويدفعها في الهواء لأعلى. في عيادة المركز قال الدكتور "خدوه على مصر بسرعة. تلزمه عملية في مستشفى كبيرة" ثاني يوم دار خليفة في البلد يلم فلوس المشوار من كل نفر شوية. ليلة السفر قالت له عطيات "أنت يا خليفة ح تنقل أخوك بجلابيته اللي عليه؟ أنت عارف بتوع مصر، إن لقوه وسخ كده ممكن ما يدخلهوش عندهم سكت خليفة. جودة كان قاعد. بص لخليفة وقال له "أنا عندي الجلابية الزرقاء. خدوها" زام خليفة زومة ممطوطة لا يفهم منها شيء. أقسم جودة وحنجرته البارزة تهتز أن يأخذوها. شكره خليفة "معلش عشان مايصحش يظهر بجلابية لامؤاخذة وسخة وكمان مقطعة" رد جودة بابتسامة "هي الجلابية ح تطير يعني؟ لما يرجع بالسلامة هاتوها" نهض. غاب قليلا وعاد بالجلباب ملفوفا في كيس. رفعه في

الهواء وزرّ عينيه يتأمله كمن يبين قيمته لمن حوله. نفضه بظـــاهر كفـــه وانحني وناوله لخليفة.

ثاني يوم الصبح مشى خليفة يجرجر سعدا علـــى الـــسكة المحاذيـــة للزراعة. يشجعه على السير هاتفا "أنت زي الفل ياسعد حـــين بلغـــا موقف السيارات "البيجو القديمة دفع سعدا إلى المقعد الخلفي. واشـــتبك جيب الجلباب بمقبض الباب وكاد أن يتمزق.

تكوم سعد على المقعد الخلفي رأسه ملقى للوراء مغمض العينين. لم ينطق بحرف ولا صدرت عنه أنة طول الطريق.

في قصر العيني فرشوا له حشية على بلاط الطرقة "لغاية ما يفـــضى سرير وقف خليفة مدة بجواره ثم اكتشف أنه لا يفعل شيئا فانحنى زاعقا في أذنه "أنت زي الفل ياسعد" وانصرف. قبل أن ينقضي الأسبوع تلقى خبر وفاة سعد.

الآن يستعد خليفة للسفر لإنهاء إجراءات الدفن. هذه المـــرة رافقـــه جودة حتى موقف السيارات وهو يكرر "ربنا يكون في العون. ما تهتمش بأي شيء" قال خليفة لنفسه إن جودة رجل غلبان عايش علـــى صـــنع أقفاص من الجريد ولابد محتاج الجلابية.

في المستشفى بصم خليفة على طلب دفن أخيـــه علـــى حـــساب الحكومة. سمع صوت الموظف يقول وهو يعيء الاستمارة "حيـــث أنـــه

معدم" لقّ خليفة كلمة معدم في رأسه. صعبت عليه فقال للموظف "ممكن لا مؤاخذة كلمة غير دي؟" جاءه الرد بحزم "لاء" تمتم لنفسه "الله يرحمك ياسعد يعني آخرها تطلع معدم؟" غادر الحجرة ليلقي نظرة أخيرة على أخيه فوجده ممددا مغطي بملاءة خفيفة يده مدلاة بجواره. أمسك باليد الباردة "معلش ياسعد كنت عاوز آخدك البلد لكن مش قادر تلفت حوله يفتش عن الجلابية فلم يجدها. خرج يستفسر عن متعلقات المتوفي فأجابه موظف من وراء شباك سلك "أي متعلقات؟" قال "المرحوم كان جاي بجلابية. مش بتاعتنا لازم نردها" نظر الرجل في دفتر "ما عنديش شيء متسجل باسم سعد. لا جلاليب ولا فلوس ولا أي حاجة" ممرض كان واقفا يدخن قرب الشباك قال لخليفة "كنت سألت عنها قبل الغُسل. يمكن اتقطعت ولا اترمت. شكلها إيه؟" برزت الجلابية أمامه "زرقاء. بخطوط فضي. وصف زراير عند الرقبة" همس له رجل عجوز ببيجامة واضح أنه قديم في المستشفى "إطلع للمدير في الدور التاني واشتكي

أمام باب حجرة المدير المكسو بالجلد انتظر خليفة ساعة. حين سمحوا له بالدخول ارتبك لأن الجلابية حاجة صغيرة لا يصح أن يشغل بها مسئول في الحكومة. قال بخجل "سيادتك أخويا جه المستشفى بجلابية ومات. مش بتاعتنا ولازم نردها" استغرب المدير "جلابية إيه؟ الكلام ده في الأمانات مش هنا" وضّح له "سيادتك أنا سألت قالوا مافيش.

ولامؤاخذة أنا عارف إنه جه بجلابية زرقاء" قلب المدير شـــفته "يعـــني عاوزني أسيب شغلي وأقعد أشوف مين ضاعت له جلابية ومين راح له لباس؟ الناس دي إيه!" أشار برأسه إلى الباب "تفضل تراجع خليفـــة بظهره "لا مؤاخذة" خرج. وقف في الطرقة بجوار نافذة كبيرة يلـــتقط أنفاسه. "ربنا يعطي الحياة وهو من يستردها. لكن الجلابية واخدينها من جودة؟"

هبط على السلم. بلغ الطابق الأول فتناهت إلى سمعه صيحات تتدفق من الشارع. عند بوابة الخروج الضخمة شاهد بحرا بشريا. ناس بيافطات يهتفون. آخرون على الأكتاف يلوحون بقبضاتهم. سيارات شرطة. بنات تصرخ. عيال تجري. شابة مرمية على الرصيف وامرأة تنحني فوقها وترتد تلطم خديها. فجأة اندفع من وراء خليفه شاب يجري فأســـقطه علـــى الأرض. نهض مذهولا تلفت حوله. استدار برقبته لاتجاه محطة القطارات. انطلق يهرول للأمام.

في محطة القطارات اشتري سندويتش فول. التهمه في وقفتـــه علـــى رصيف قطار الصعيد. بدأ القطار يتحرك فركبه. استراح على أرض باب بين مقطورتين. راح يدقق النظر في الجلابيب التي تعبر أمامـــه ويقـــدر أثمانها. لا يقل الواحد عن ثلاثين أو أربعين جنيها خبط لزق. سمع صوت مفتش التذاكر فنهض بسرعة يختفي في المقطـــورات الأبعـــد. اختبـــأ في دورات المياه ثلاث مرات ثم قرر أن يهبط ما إن يتوقف القطار في الفيوم ويواصل السفر بالقطار التالي.

خرج من المحطة إلى الميدان الواسع حولها. في السماء بقية من حمرة الشمس. هبات هواء باردة تتدفق إلى الجو. خطفت بصره كلوبات مضاءة في مدخل سرادق ضخم. سمع صياحا ينبعث عبر مكبرات الصوت. مال على عجوز يقف أمام نصبة شاي "فيه إيه؟" أجاب العجوز وهو يشطف كوبا في طست ماء "انتخابات وناس بتتكلم. ح تشرب شاي؟" هز رأسه بالنفي. شعر بتعب اليوم كله يحط في ساقيه. حاول أن يلتقط الكلام الصادر من ميكروفون السرادق فلم يفهم شيئا. فجأة لاح أمامه الجلباب الأزرق مفرودا واضحا. وقف مرهقا يثني أصابع قدميه داخل الصندل البلاستيك بتعب. قال لنفسه بغضب "يعني جودة ح يعمل فيك إيه؟ ملعون أبوه على أبو جلابيته في ساعة واحدة"

حل موعد القطار. جرجر نفسه إلى المحطة وركب. ساعدته العتمة على الزوغان من المفتش. هبط إلى المنيا. دخل البلدة والدنيا ليل. مشى على السكة الضيقة بين نباح الكلاب. لاحت في العتمة الساقية المهجورة. خلفها البيوت المنخفضة المتلاصقة وأكوام السباخ الراقدة أمام أبوابها. تذكر ذراع سعد مدلاة لأسفل. توقف تحت السماء والنجوم التي تضوي في الظلمة. رفع عينيه لأعلى. خفض بصره. تطلع ثانية للسماء. نفخ في الهواء بألم "يارب. أنت من يعطي الحياة وأنت من يأخذها. ماقلناش حاجة. لكن الجلابية مش بتاعتنا. لازم نردها. يارب".

***

غمغمة

لو أنك كنتَ الآن تدور حول الأرض بمركبة فضائية، وهبطت بنظرك إلى كوكبنا، فهل كنت سترى الميكروباص الصغير الذي نجلس فيه ويسير بنا في شارع من ملايين الشوارع بمئات البلدان في أرضنا؟. في أفضل الأحوال كانت السيارة ستبدو لك نقطة من مليارات النقط على شاشة حليبية، وإن كان لتلك النقطة المغزى الذي لبرق يطوي الأرض والسماء.

في الميكروباص، على كنبة ظهرها لظهر السائق، جلس رجل في نحو الثلاثين، يبدو أنه نقاش من بقع الجير البيضاء على سرواله. بجواره جلس خلف السائق مباشرة صبي في الثامنة. الساعة التاسعة صباحا، السائق يدخن. معظم الركاب ممن تقدمت بهم السن على وجوههم سهوم كل من عركته الدنيا في البحث عن خبز، أو معنى للوجود، أو من استسلم بدون مقاومة، أو من لم يفقد الأمل لكنه بلا مخرج.

الصبي وحده كان ممتلئا بحيوية غريبة مضادة للوجوم، يسدد نظرات جريئة إلى الركاب المتراصين أمامه على كنبة وراء أخرى. تبتسم عيناه ووجنتاه وفمه. الآن مثل نجم تيقن من ثبات المنصة تحت قدميه فرد ذراعيه الصغيرتين وراح يحكي بصوت رنان حكاية. التفت إليه والده النقاش وهو يدير بين أصابعه مفكا حديديا. وانتبه الركاب المطرقون.

قال الصبي "كان ياما كان فيل ضخم أبيض يعيش في غابة سوداء، يمشي ويدب. دمْ دمْ، فتطير العصافير من الأغصان وتهرب الأرانب الصغيرة في كل ناحية" حدق الصبي بجمهوره بعينين تلمعان كحبتي زيتون أسود ثم رفع رأسه ناظرا لأعلى كأنما ليرى ماذا يمر هناك بخياله ليحكيه "كان الفيل الوحيد الأبيض دُهش الصبي نفسه مما يحكيه ففتح عينيه متعجبا "و لم يكن للفيل بيت، فكان يمشي بحثا عن بيت. دمْ دمْ" سكت ليرى في عيون الركاب وقع حكايته أو جرأته وخياله. من أول كنبة حتى آخر كنبة تطلع الركاب إليه. البعض بدهشة والبعض بفرحة آسية، ربما لأنهم شاهدوا، فجأة، من جديد، البراءة التي تولد لحظة وتختنق.

قام الصبي وقعد يصيح "دبة قدم الفيل. دمْ. دمْ. تجري الغزلان. الفيل الأبيض في الطريق رفع الولد كفيه ضرب بهما فخذيه "هههه. دمْ. دمْ" وسكت وتجمد. ثم رجع فجأة برقبته يقهقه من سعادته أنه استولى على اهتمام الكبار وسحرهم بحكاية من خياله.

على يمين الطريق لاحت سيارة مركونة، وقف إلى جوارها رجل يناهز الأربعين يلوح بيده. مال السائق بالسيارة وتوقف. صعد الرجل ببذلة أنيقة ووجه يفوح بالعطر وجلس في مواجهة الصبي. حدق الصبي بالرجل بهدوء كمن يسبر غوره، ثم استدار ولمس بحركة نزقة رأس السائق بيده "سمعت الحكاية؟ دُمْ!" اعتدل يغطي سعادة وجهه بكفيه. مد السائق

ذراعه إلى خلفه وأمسك بخصلة من شعر الصبي "أي دمْ؟. أهذه هـــي؟" وضغط على نفير السيارة ضاحكا دمْ!!"

قال الراكب الجديد للولد "شاطر.. تحكي حكايات؟" تأمله الـــصبي بهدوء و لم يعلق. نظر النقاش إلى إبنه بحب "البيه يقول إنك شاطر. فماذا ينبغي أن نقول له؟" صمت الصبي. كرر أبوه ما قاله، فغمغم الصبي ببطء كمن يلوك شيئا مرا "ربنا يخليك" ونترر كتفيه كمن يتحرر من حمل حط عليه. مد ذراعه يحاول الإمساك بمقود السيارة فلم يتمكن. وقف علـــى الكنبة بركبتيه وطال النفير وضغط عليه "دُمْ"! حذره الراكـــب الجديـــد "هكذا قد تقودنا لحادثة؟ أيرضيك هذا وأنت ولد ذكي؟" بحلق الـــصبي في الرجل. قال أبوه "البيه يقول إنك ولد ذكي؟ فكيف نرد عليه؟" لفظ الصبي ببطء "ربنا يخليك" ربت النقاش على ظهر الطفل بعطف. قـــال الرجل "الولد الذي يسمع الكلام ولد مؤدب" غمغم الولد بخفوت "ربنا يخليك" بعد ذلك لزم الصبي الصمت. كف عن الحركة. شاع في وجهه الوجوم.

لاح مطلع كوبري فطلب النقاش من السائق أن يتوقف عنده وهبط والولد في أعقابه. سار النقاش وخلفه الصبي بيد ممدودة في الهواء يـــردد العبارة كأنما ليحفظها "ربنا يخليك"

واصلت السيارة طريقها وتركت النقاش والصبي خلفها يتـــضاءلان ويتقلصان حتى تلاشيا مثل قطرتي ماء على أسفلت حار. وفجأة أمطرت

السماء، مطرا غزيرا مستمرا، ودحرجت رعدا فرقع فوقنا، وأنارت خيوط البرق المتقطعة وجه الفضاء، واتصل المطر بقوة وكثافة غريبة، ثم هدأ كل شيء، وبدا أن العالم مغسول وجديد ومنهك. رفعت بصري لأعلى ووجدت السماء صافية تماما، وخيل إليَّ أنني ألمح المركبة التي تدور بها بعيدا مثل نقطة صغيرة.

***

تاريخ فقاعة

كان كل شيء يمضى بدقة إلى أن ظهرت تلك الفقاعة الصغيرة جدا وبقبقت مرتين "بق. بق وما هو وزن فقاعة هواء في حركة التاريخ والتطور البشري؟ قطعا لا شيء. هكذا سيجيب كل من يخلط بين فقاعة في معدة موظف صغير وفقاعة في بطن رجل دولة عظيم الشأن. دعني أوضح أنني مجرد حارس من خمسة حراس كانوا يرافقون سيادته، أحكي ما حدث بالضبط، فلست ممن يطلقون الشائعات أو ينتمون لحزب أو يؤججون فتنة. تلك البقبقة كانت الحماقة الأولى للفقاعة وبها عبرت في طيش عن فرحتها بمولدها. وكما لا يفكر الإنسان في المادة التي خُلق منها فإن الفقاعة لم تفكر فيما إن كان الفضل في وجودها يعود إلى جرعة هواء دخلت عبر الفم؟ أم إلى تلبك معوي؟ أو كتلة غازات طفت في المعدة؟ المؤكد في كل الأحوال أن الفقاعة بقبقت مرتين. ومن الذي يسعه أن يمنع طفلا من الصراخ أو فقاعة من البقبقة؟. هنا عض عظيم الشأن على شفته السفلى داخل السيارة وتشنجت ملامحه من الوجع. وأحست الفقاعة من الألم الذي سببته له بأن وجودها حقيقة ففردت ساقيها الصغيرتين بكسل وفرح في الرطوبة والعتمة. حتى تلك اللحظة لم ينتبه أحد إلى خطورة وجود فقاعة في بطن رجل دولة رفيع المقام إلى أن مضت سيارته فوق الكوبري وأصبح ميدان رمسيس تحتنا، حينئذ، وكنت واقفا على دواسة الباب من ناحية الشمال، دفع الفضول

الفقاعة – لعنة الله على الفضول إلى وثبة صغيرة تستكشف بها عالم المعدة الصغير، قفذت للأمام. مكثت مكانها تلهو وتضرب في المصران، ثم عادت إلى مكانها، هكذا، لا منطق، ولا فكرة، ولا هدف. حياة لمجرد الحياة كما يقال. في هذه اللحظة نظرتُ في المرآة الجانبية ورأيت وجه سيادته والعرق يغمره وعليه أمارات تعب شديد. على الفور توقف الموكب، وخرجت مهرولة فرقة الأطباء من سيارتها المرافقة. قاس الطبيب الضغط واستمع إلى نبضات القلب. شد الجفن إلى أسفل، ونحن في قلق واضطراب. صب لسيادته قطرات "سيميثكون" الطاردة للغازات في قدح ماء مثلج. وأخيرا واصل الموكب طريقه. الحق أني لم أسترح لما جرى، فهي المرة الأولى التي نتوقف فيها في الطريق لسبب صحي، لكني رحت أدعو الله أن يحفظه ويصونه لشعبه وللعالم.

أنا كما قلت حارس بسيط من خمسة حراس يرافقون سيادته، ولم يكن لي أن أتخيل أن هذه الفقاعة التافهة كانت على موعد مع القدر، هي تحديدا، من بين مليار فقاعة تشكل المناخ العام الذي نتنفسه. وحدها كانت على أبواب المجد، لأن ولادتها، أو نشأتها، ارتبطت بمعدة، ثم بعقل، ثم بخطاب رجل دولة بارز.

واصلنا طريقنا إلى مبنى قاعة الشعب. في تلك الأثناء كانت الفقاعة تواجه أول تحد لوجودها، ألا وهو مفعول قطرات "سيميثكون" والمواجهة كما هو معروف تستنفر كل الطاقات الكامنة حتى لدي فقاعة

عابرة. هكذا وقع أكثر الأشياء غرابة، الأمر الذى لم أستطع أن أتكلم فيه لاحقا مع أحد، ولا حتى زوجتي، وحين كانت المعجزة التي وقعت تتسلل إلى أحلامي كنت أطرد صورتها على الفور لأنام مطمئنا. حينذاك، ونحن في طريقنا، تصدت الفقاعة للقطرات بصمود مذهل. وبينما كان مفعول القطرات ينحسر ارتجف على الجدران الداخلية للفقاعة خيط هش وردي اللون من وعي محدود. وعي لا يمكن أن تسميه عقلا إلا مجازا. لكن ذلك الوعي ألهم الفقاعة ألا تستسلم للطرد والخروج، وربما هداها الوعي المحدود إلى فكرة أن فقاعة حية داخل معدة أفضل ألف مرة من فرقعة مجيدة. وحين تحللت القطرات مهزومة دق في قلب الفقاعة الشعور بقوة وجودها، فأخذت تقلص المصران وترخيه. تتواثب بداخله، تمطه وتهمله إلى أن اطمأنت إلى تأثيرها، فتضاعف وعيها بذاتها حدة، وواصلت حياتها نحو لحظة مجدها.

وصلنا إلى المبنى ودخل رجل الدولة عبر الردهة المخصوصة إلى مبنى قاعة الشعب، وحين أخذ يصافح البعض ممن كانوا في انتظاره شعر بمغص شديد، وشملته حرارة مرتفعة أشبه بالحمى. استأذن سيادته وقصد دورة المياه. هناك، وحده، أخذ يجرب بكل الطرق أن يتخلص من الفقاعة. حاول ذلك بالانحناء على معدته. بضغط الهواء لأسفل، وكانت هي تشعر بتلك الحرب، فتشبثت بجدار المعدة وهي تقول "الضغطة التي لا تقتلني تقويني كان ذلك هو التحد الثاني بعد القطرات الذي واجهته الفقاعة وتغلبت عليه.

بعد قليل خرج عظيم الشأن من دورة المياه منهكا. اتجه إلى القاعة التي سيلقي فيها خطابه التاريخي، وما إن ظهر حتى دوى في الأجواء تصفيق حاد متصل. لكن فورة الاحتفاء تلك لم توقف المغص الذي اشتد، ولا حرارته الآخذة في الارتفاع. تطلع إلى الصفوف الأولى بعينين تضيقان وتتسعان. تفقد ربطة عنقه. أدنى قدح الماء من فمه، وساد الصمت. صفوف الحاضرين في القاعة. طال الصمت. في تلك اللحظة وكنت واقفا على مسافة من سيادته — أحستْ الفقاعة بسيطرتها شبه الكاملة على البدن المنهك، وأنه بلا حول ولا قوة، مجرد بدن مرتجف داخل بذلة من قماش لامع. وبادر أحدهم لقطع الصمت بالتصفيق، فارتجت القاعة من خلفه بالهتافات. أدركت الفقاعة من الأضواء والصيحات الحماسية أن ظرفا خاصا جدا تهيأ لها لترتبط بحدث تاريخي عظيم. الغرور أدار رأسها، ونشوة السلطة، فأخذت تقبض على معدة عظيم الشأن وترخيها، وهو يتلوى، وعندما صار الجسد الواقف واقعا تماما في قبضتها أيقنت أنها أصبحت عقلا لبدن لم يعد سوى تجسيد لوجودها العابر.

فيما بعد، لم أستطع أن أتحدث إلى أحد، حتى مع نفسي، بشأن المعجزة التي وقعت. أقصد حين أخذت الفقاعة تخرج من فم المسئول في شكل كلمات وجمل غير مترابطة، وكانت تخرج للهواء متفاخرة وسعيدة أنها ماثلة أمام هذا الحشد الكبير وتحت تلك الأضواء الساطعة. هكذا صدرت القرارات التاريخية وطفت من فم عظيم الشأن معكوسة في الهواء.

بدلا من أن يقول محو أمية الجميع، قال محو الجميع بالأمية، وهكذا إلى أن اختتم خطابه بقوله نعادي من يسالمنا، ونسالم من يعادينا. كنت أنا مضطربا أدعو الله أن يحفظه ويصونه، وحمدت الله عندما انتهى من خطابه ودوت عاصفة من التصفيق. واسرع سيادته متخبطا ونحن في أعقابه نحو صالون الضيافة. هناك ارتمى على أول فوتيه فاردا ساقيه على الأرض ورأسه ملقى إلى الوراء، فتلقفه فريق الأطباء بالفحوص السريعة.

لم يبق من بدن الفقاعة بعد الخطاب التاريخي سوى عينين زائغتين في وجه منهك فارقته علامات الحياة. مع ذلك، فإن الفقاعة التي بددت نفسها تحت أضواء المجد لم تستشعر الأسف على عمرها الذي أضاعته في لحظة. لقد انتهت بخروجها، هذا صحيح، ولكن من في تاريخ الفقاعات نال ذلك المجد كله؟.

فيما بعد، تم التحقيق معي أنا وزملائي الأربعة الآخرين حراس السيارة. كنت واثقا مطمئن الضمير إلى أنني لست مذنبا في شيء، إلا إن كانت رؤية الحقيقة تحسب ذنبا. مع ذلك فقد شعرت بتوتر والضابط يسألني عما جرى بالتفصيل في ذلك اليوم. حكيت له ما كان ظاهرا ومرئيا للجميع، لكنني أخفيت في أبعد نقطة من أعماقي ما أبصرته وحدى، لأنني أعلم منذ طفولتي أن الناس لا يصدقون الحقيقة.

- أكتوبر ٢٠١٠ - جريدة العربي الناصري

***

بلدنا يا مرجريت

في التاسعة صباح كل يوم يبدأ العمل في مكتب الشهر العقاري بشارع خيرت. المكتب عبارة عن شقة ضيقة من أربع حجرات، في سقف كل حجرة مروحة تحرك الضجر. تحت كل مروحة أربعة مكاتب قصيرة، منكمشة، يجلس إليها الموظفون كأنما يعفقونها بين سيقانهم. وما أن يفتح الباب حتى يندفع جيش من المواطنين يتواثبون بأوراقهم بين المكاتب مثل فشار ملسوع في طاسة، يطقطقون وينحنون ويعتدلون أمام الموظفين، صارخين، هامسين، متوددين، متوعدين.

جزء غير قليل من العمل ينتهى عند مكتب سيد أبو طالب المختص بوضع الأختام في الحجرة الأولى على يدك اليمنى ما أن تدخل الشقة. أمام سيد أبو طالب الجالس تحت النافذة الوحيدة بالحجرة وقف — بعد هرس ودوس — مقاول بدين بجلباب، دفع بأوراقه قائلا بصوت أجش "توكيل قضايا يا أستاذ سيد ربنا يكرمك" نهض أبو طالب وأعطى المقاول ظهره كأنما لم يسمعه و لم يره من الأساس. فتح النافذة بهدوء على منور العمارة. انقبض أنفه في الهواء. أغلق النافذة، واستدار ممتعضا يقول بنبرة تقريرية "زبالة"، كأنما كان في تجربة علمية وخرج منها بنتيجة محددة. جلس. المقاول الذي لم يكن يعنيه غير إنهاء أوراقه علق بعبارة تصلح لكل حادث وحديث "ربك كريم" وردا على العموميات رفع أبو طالب رأسه

الأصلع وقال في العموميات "تفتح شباك تهب عليك رائحة زبالة! تأكل سندوتش يمرضك! تمشي في حالك يضربك ميكروباص أو تقع على رأسك عمارة! والقرش يأتي بخلع الضرس، وإذا جاء لا يكفي. هذه بلدنا في الأغاني بس. مصر التي في خاطري، ولو لم أكن زفتا لوددت أن أكون هبابا! جاءتها نيلة بلد" ولم تفت عبارة "القرش يأتي بخلع الضرس على المقاول الذي تمرغ مع الفواعلية وتعطر مع المهندسين الأثرياء، فأخرج في لمح البصر ورقة بعشرة جنيهات وزحلقها بنعومة تحت استمارة التوكيل. أبو طالب لمح الورقة بعين الصقر فقال بوجه بومة مشمئنطة "أنا مثلا من عائلة أبو طالب. كان منها عضو بمجلس الشعب، ود. حسين طبيب العيون المشهور الذي ظهر في التلفزيون، وأساتذة في كل مجال. لكن ها أنا.. (ورفع منكبيه لأعلى ومط شفته إشارة إلي القدر) هذا الله وهذه حكمته. ولو كنت في سن الشباب لهاجرت إلى بلد أخرى" لاحظ المقاول أنه لم يوميء للعشرة جنيهات فقال على الفور "عائلة أبو طالب كلهم ناس أفاضل. توكيل قضائي يا سيد بك"

في هذه اللحظة انشقت الأرض عن فتاة أنيقة، بيضاء كالحليب. أفسح لها المقاول الذي يعرف تأثير الجمال مكانا. وقفت أمام المكتب فكأنما ارتفع في الجو عمود من النور العطر. قالت بلكنة أجنبية رقيقة "من فضلك توكيل قيادة سيارة" دبت حيوية مفاجئة في عيني أبو طالب ومط رقبته مثل ديك البراري يصيح "تحت أمرك. طبعا". سألها عن

الاسم، فقالت "مرجريت هاني" استفسر "مصرية؟" أجابت بلطف "نعم. بابا مصري، ماما انجليزية" شبَّع أبو طالب صوته بالإعجاب قائلا "لكنك ماشاء الله تتكلمين المصرية تمام؟" قالت "أنا في مصر منذ عشر سنوات" عاد برقبته للخلف قائلا "سيد أبو طالب. من عائلة أبو طالب، منها أساتذة ومحامون" وابتسم متوددا "أعجبتك مصر؟" أجابته بإحناءة رأس "أحسن ناس ترك القلم من بين أصابعه وقال بصوت رنان "بلدنا بلد عظيمة ومادام والدك مصريا فلابد أن تحبي مصر؟ مضبوط؟" ابتسمت بعذوبة "إن شاء الله" عاد يملأ الخانات في استمارة التوكيل وهو يقول "مصر تاريخ وحضارة. شفت الأهرامات والقلعة؟ شفت الناس عندنا كيف يتعاملون بطيبة مع الكل؟ نخدم الجميع بعيوننا. بلدنا يامرجريت أم الدنيا" هوى بالختم على الاستمارة بخبطة قوية كأنما يطرد بذلك هاجسا في نفسه. ناولها التوكيل ثم سألها "تحبين مصر طبعا؟" قالت وهي تبتعد "إن شاء الله" استرق النظر إلى العشرة جنيهات، واستوقفها يقول لها وشيء يعتصره من الداخل "تحبينها صدقا؟" قالت ضاحكة "طبعا بلدنا" تشبعت نظرته بالشك والرجاء يسألها "لكن على أي شيء نحبها؟.. قولي لي؟"

***

الطابق السابع

في الثامنة من عمره. توفى والده فانكسرت زهرة الحنان من أمه. ينام على سرير ضيق ووجهه إلى الحائط يكلم الظلال على الجدار حتى يغمره النعاس. يذهب إلى المدرسة. يلعب على سطح البيت أو في الشارع. يفكر في الطابق السابع. النزهة الوحيدة في حياته الصعود إلى شقة الجيران، عندهم لا يمد يده إلى لقمة لكنه يرى الطعام. لا يتكلم لكن يسمع الضحك. لا يطمئن إلا أن السكينة حوله تشمله، ويغدو صامتا يتشبع بالنور من حضور فريال.

الطابق السابع. لايصعد إلا بعد أن يتهيأ. يسرح شعر رأسه. يشد أطراف البنطلون الشورت على فخذيه. يمر بطرف أصبعه مبللا بريقه على جلد الصندل. وحين يشعر أنه أصبح محاطا بهالة يخرج ببطء من باب الشقة صاعدا إلى الطابق السابع. يرتقي الدرج ببطء. مع كل درجة يملؤه أمل. يصل ويجد نفسه أمام الباب فيشعر أنه صبي آخر غير الذي كان. يتمهل. يسحب نفسا عميقا ثم يطرق الباب.

في أغلب الأوقات كانت هي التي تفتح له. تنظر إليه بفرحة كأنما وجدت كنزا صغيرا. تجلس القرفصاء عند عتبة الباب المفتوح. تمسك خصره بيديها الاثنتين. تقول له "جئت؟". تغمر وجنتيه بقبلات حارة

متدافعة. تسحبه من يده إلى داخل الشقة. تصيح في اتجاه المطبخ حيث أمها "مازن ياماما" يسعده الإعلان عن مجيئه ويشعر أنه صبي آخر.

عادة تجرجره إلى البلكونة التي تطل على صالة سينما صيفى مكشوفة. تجلس على كرسي فوتيه. يقعد على كرسي أمامها. تنحني نحوه. تمسك كفيه الصغيرتين ترجهما بأصابعها لأعلى وأسفل. تحدق بعينيه طويلا بحنان فياض. تسأله بصوت عميق "من تحب؟" تلهب السخونة وجهه ويتدحرج اسمها من فمه على مقطعين "فر.. يال تضمه وتحتويه بصدرها وكتفيها الدافئتين "أنت حبيبي يامازن" تسأل وبسمة في عينيها "ستحبني دائما؟ دائما؟" يهز رأسه أن نعم لأنه لا يعرف كلمات لما يشعر به.

تقول "خل عينك على الصالة لكي لا تطب ماما علينا فجأة" تخرج سيجارة من جانب الفوتيه. تشعلها. يرفع عينيه نحوها كأنما منحه ذنب التدخين حق تسديد نظرة مباشرة. يتملى من وجهها المشبع بحرارة الشمس والشباب. يلمح حمالة قميص النوم على مترلق كتفها. تصفف شعرها خلف أذنها وتتأمله كأنما ضبطته. تسأله "عارف أني سأتزوج عما قريب؟" يطرق في صمت. تمسك يديه من دون أن تقول شيئا وتنظر إليه برصانة. تقول "هذا لازم. فاهم؟" تضغط يديه بين كفيها بقوة. ترتجف كفاه الصغيرتان ودمعه يأتي من بعيد.

بعد نحو شهر احتفلوا بعرسها على سطح البيت. أضاءت الكلوبات السطح فأصبح الليل كالنهار. صدحت الأغنيات بصوت مرتفع، وتتابعت أقدام المعازيم على السلالم صاعدة إلى أعلى.

لكنه لم يصعد. ظل جالسا وحده في البيت حتى جاءته أخته تقول له "طنط فريال تقول لك إطلع" صعد. مع كل درجة كانت الضوضاء والصيحات المرتفعة تسد أذنيه. توقف عند الباب المفتوح على السطح بين أقدام رجال ونسوة ممتلئات. رآها جالسة في "الكوشة" في فستان أبيض بجوار رجل غريب. لبث مكانه يتطلع إليها من بعيد مترددا لا يتقدم. لمحته فوثبت نحوه وفي عينيها الفرحة التي كانت تستقبله بها دائما. انحنت عليه وهمست بصوتها العميق معاتبة "أتتركني يوم زفافي؟" قبضت على كفه وجرجرته. أجلسته على الكرسي بجوارها وأخذت تغمر كتفيه بقبلاتها وتربت على رأسه بحنان.

اختفت فريال. لم يعد ثمة طابق سابع. وخاف إذا سأل عنها أن يعرف الآخرون أنه مغرم. وظل يتمتم باسمها مشطورا "فر.. يال" وهو في العشرين، وفي الأربعين، وفي الستين من عمره. انزلق من محبة لمحبة، ومن عطر لعطر، بدون أن يفهم ما الذي حدث له في الطابق السابع.

***

رحمة

"رحمة" اسم الرواية التي قلبت حياتنا نحن الخمسة، ووضعت رقبة واحد منا في حبل المشنقة، وساقت ثلاثة إلي السجن، وأجبرتني طويلا على التخفي والعيش مطارداً.

مازلت أذكر كيف بدا الكتاب في تلك الليلة على الضوء الضعيف بالمقهى وبين دخن النرجيلة، مجرد كتاب من القطع المتوسط، بغلاف من ورق خشن مرسوم عليه بلونين أحمر وبني شاب وفتاة واقفين بملابس مسدولة محتشمة كتفا إلى كتف يتطلعان إلى كوخ ونهر في الأفق.

كمال هو الذي جاء بالرواية، وبطبعه الحاد والطاقة العصبية التي تنير وجهه دفع بها إلينا قائلا "وجدت كتابا فيه كل ما نريد. الأمل والإرادة والعمل والحب. اقرؤوه" ألقى بالرواية على المنضدة أمامنا وغادر ليسافر إلى واحة سيوه.

انصرف كمال وترك الكتاب تحت أبصارنا بمظهر اعتيادي مثله مثل أي كتاب. ولم يكن أحد ليظن مهما شطح خياله أن هذا النص الراقد بصمت على سطح المنضدة يضمر تلك المقدرة على ملاحقتنا بالشر دون هوادة ومن غير أن يفلت أحدا؟

في ذلك الوقت كنا في مطلع حياتنا، شبابا، فقراء، بلا مستقبل. نقضي أغلب أوقاتنا في مقهى بالزاوية الحمراء، تتصاعد أحلامنا أمامنا مع دخان النرجيلة وتتبدد معه في الهواء.

أثناء غياب كمال قرأ راشد شعبان الرواية، ورجع بها إلينا في اليوم التالي مدهوشا "فوق الوصف. لا أدري كيف عثر كمال على كتاب كهذا" فتح الكتاب على ركبتيه، قرأ سطرا وعقب عليه "نثر لكن موزون" أعاد قراءة السطر يزنه على أحد بحور الشعر "أخذت والناس عن يميني.. مستفعلن فاعلن فعولن.. أشدو بحبك يا نور عيني.. مستفعلن فاعلن فعولن وعلق بقوله "عجيب. ثم انظروا دعوة المؤلف الرائعة إلى حياة بها كل ما نتمنى؟! شاب هو شوقي يحب فتاة هي رحمة. لكن الاثنين يصطدمان بـــ...

قاطعه مصطفى عبد الحميد منتزعا الكتاب من يده قائلا "إذا حكيت ما به فلن نستمتع بقراءته"

عصر اليوم التالي وجدنا مصطفى في المقهى قبلنا جميعا. وما إن رآنا و لم نكن قد جلسنا بعد، حتى قال "فتحت الكتاب ياجماعة و لم أنهض من مكاني قبل أن أنتهي منه. كنت أبكي عند بعض المقاطع. نعم. بهذه القوة أحببت أنا نادية، لكنها انصاعت لوالديها، أما رحمة فقد شقت طريقها مع شوقي بحياة التقشف والبساطة في الصحراء. كاتب كهذا يا جماعة يقام له تمثال فوق السحب" قرأ مجدي الكتاب في ليلة وقال إنه عمل بديع، وأمعن النظر طويلا إليه كأنما يزنه متسائلا "كم تظنون تكلفة طباعة كتاب كهذا؟ لا شيء، والمؤكد أنه عاد على أصحابه بأرباح كبيرة" واقترح "ما رأيكم لو نقيم مشروعا تجاريا نطلق عليه اسم رحمة؟" لم يجد

تجاوبا، لأننا اعتدنا منه أن كل الأحداث تقوده إلى التفكير في مشروع ما. تنهد بدون أن يفقد الأمل "لو استطاع كل منا أن يدبر مبلغا ولو ضئيلا بعدها نعيش حياة العز. صدقوني

كنت آخر من قرأ، وكنت الوحيد الذي نجا من السجن والموت.

حين فرغنا من قراءة "رحمة" استولت على نفوسنا وفتحت في قلوبنا طاقات العشق والأمل. قمنا بشراء عدد محدود من الكتاب لنهدي منه أصدقاءنا. وكثر كلامنا عن "رحمة"، في المقهى، وبينما نحن نتمشى في الشوارع. في بيوتنا، وحتى ونحن نلتهم سندويتشات الفول أمام عربة يد. وكنا كلما تكلمنا عن "رحمة" تمكن منا سحر الحب والكرامة والحياة السعيدة.

ذات مساء توجهنا إلى مسمط لنأكل لحم رأس، وبعد أن فرغنا وغسلنا أيادينا، أخرج راشد شعبان دفترا صغيرا وضعه على المنضدة ونقر عليه بأصبعه قائلا "سجلت هنا زبدة الرواية. جملة مباديء تنظم كل نواحي الحياة بالاعتماد على العمل والإيمان. لو سرنا عليها لانفتحت أمامنا كل الأبواب الموصدة" كان دفتر راشد أول تفسير للكتاب. التفسير الثاني قدمه كمال عنتر حين قال "مغزى الرواية أننا لا نفوز بشيء من دون صراع" تردد مصطفى طويلا ثم قال "أظن أن الرواية تمجيد لعاطفة الحب القوية قبل كل شيء"

غادرنا المسمط واتجهنا لحضور عرس إحدى قريبات كمال ي سراداق بالحارة وكانت أم كمال المريضة حاضرة. وقف كمال بجوارها يربت على كتفها طوال الوقت، بينما لم يرفع مصطفى بصره عن العروس. لم نمكث طويلاً، وما إن غادرنا سرادق العرس حتى قال مصطفى ووجهه مخطوف "لو أن في الدنيا عدلا لجلست مع نادية في الكوشة والورد حولنا"

صادفت الرواية إعجاب زملائي في الكلية، وكان بعضهم يرجع إليَّ بمديح أو باستفسار، فأرتب له لقاء مع كمال أو راشد. لم تمض شهور قليلة حتى أظهر البعض استعداده لتقديم تبرعات صغيرة، وأخذنا نشتري عددا أكبر من الكتاب لتوزيعه على الناس في الجامعة والمحلات والمساجد ومحطات المترو. ورحنا نطبع وننشر صور شوقي ورحمة بالملابس المحتشمة وبعض المقتطفات المهمة من الرواية على ورق متوسط الحجم.

خلال أقل من سنة بدأت بعض المقاهي ومحلات الطعام تتخذ لنفسها أسماء من عبارات بالرواية، وأسعدنا اكتشاف محل في وسط البلد متخصص في أزياء "رحمة" أيضا صرنا في بعض الأحيان نصادف شابا جالسا داخل قطار مترو الأنفاق بيده الرواية يحفظ منها فقرة وهو يؤرجح رأسه علي إيقاع كلماتها.

شعرنا بأهمية ما نقوم به يوما بعد يوم، فهجرنا جلسات المقهى واستأجرنا شقة في أطراف "المرج" لنلتقي فيها. هناك شرعنا في تنظيم عملنا، ووقعت مسئولية النشاط الطلابي على عاتقي. أحسست للمرة

الأولى أنني وجدت حياة تنتزعني من أفق الحارة المسدود ومن إلحاح والدي لأساعده في ورشته لتصليح السيارات.

في نهاية ذلك العام زاد تواجدي في الجامعة، وكنت تقريبا كل يوم ألتقي بزملاء جدد وأحدثهم عن "رحمة" عدد كبير منهم أظهر حماسته لدعوتنا، وظل نفر لا يبالي، وسألني احدهم باستنكار "كيف يصيبكم كتاب بهذا الهوس وهناك المئات من الكتب والمؤلفين؟!" لكني عزيت نفسي بأن "رحمة" لن تحرك في أمثاله وترا لأنه من الطلاب الأثرياء ممن يسرت لهم الحياة كل شيء. ولاحظ والدي انشغالي فقال لي ذات مساء بنبرة توبيخ "ماحكاية رحمة ياباشا؟"

مع مطلع العام الثاني من نشاطنا بلغنا من أصدقاء أن ثمة من يندس هنا وهناك يسأل عما نفعله وعن أهدافنا وعما ننشده. وأشارت بعض الصحف إلينا في سياق تحقيقات عن الشباب والمجتمع. ثم أجرت جريدة كبرى حوارا مع المؤلف نشرته بالبنط العريض تحت عنوان "مؤلف رحمة يستنكر ما يتم باسمها"، وفيه فاجأنا المؤلف بموقف غريب، فقد كرر بعبارات قاطعة أن روايته رسالة محبة ليس إلا، وأنه يأسف غاية الأسف على أن يؤدي كتابه إلى تشكيل جماعات منظمة مهووسة بالنص! حاول كمال عنتر وراشد أن يقابلا المؤلف بعد ذلك لكنهما لم يتمكنا.

التقينا نحن الخمسة مساء في شقة المرج. كنا مشحونين بالغضب الممتزج بمرارة الإحباط. من أفواهنا جميعا تدافعت تشتبك في الجو ألفاظ الخشونة والبغضاء، فقد قدرنا أن تصريحات كتلك من مؤلف بذلنا جهدنا

لنشر دعوته هي في الحد الأدني جحود ونكران. أكلنا لقمة ونحن في هم وأسف، ثم قال راشد بعد وجوم "كلمات المؤلف خطيرة لأنها قد تفض الناس من حولنا. لابد من إسكاته وإلا تهدم كل ما أقمناه" وقف كمال عنتر يتشظى انفعالا عصبيا وكفه ترتجف يصيح "إذا توالت تصريحات من هذا النوع فسوف يسألنا الجميع باسم من إذن تتحدثون؟" مكثنا جالسين في جدل طويل ومضن تطرق لكل ناحية حتى دخل الفجر علينا فاتفقنا على ما سنقوم به. واستمهلنا راشد عدة أيام لكي يشاور الجن الذين سخرهم لخدمته ويطلب المعونة منهم. عدنا إلى بيوتنا وقد شملتنا كآبة معتمة.

بعد يومين جاءنا راشد بوجه متهلل قائلا "على البركة. لكم التأييد كله" انقضى أسبوع ونحن في قلق نقلب الأمر على كافة وجوهه وننتهي إلى نفس القرار.

ظهر اليوم الذي اعتاد فيه المؤلف أن يقصد صحيفة "الأكوان" وقف كمال على الرصيف أمام مبنى الصحيفة وإلى جواره مصطفى بيده باقة زهور. جلسنا أنا ومجدي وراشد داخل سيارة ناحية الرصيف المقابل. ثبتنا أبصارنا على زميلينا الاثنين هناك نحدق إليهما بأعصاب متوترة. كان كمال يشد رقبته لأعلى بحركة عصبية، ومصطفى يتلفت حوله بقلق. مر وقت جف فيه حلقي وصرت بالكاد أرى أمامي. وكانت ركبتا راشد ترتجفان تحت مقود السيارة، وتحجر مجدي حابسا أنفاسه.

أخيرا ظهر المؤلف. خرج ببطء من باب المبنى يتوكأ على عصا. وللمرة الأولى أرى الكاتب الذي أهدانا أروع النصوص. أدهشني بهيئته المسالمة الوديعة والبسمة الصغيرة الساخرة بأدب جم. ارتخت أعصابي فجأة لحظة لم تدم طويلا، فقد تقدم مصطفى خطوة نحو المؤلف وهو يرفع باقة الزهور لأعلى، وكان لابد لكمال أن يقوم على الفور بما اتفقنا عليه. لكن كمال تجمد على الرصيف كأنما سلبت منه إرادته حتى انشق الهواء عن سكين بيد مصطفى عاجل بها الكاتب بطعنة في رقبته.

لا أستطيع الآن أن أتذكر أو أفهم المشاعر المتضاربة التي شبت في روحي حين غاب فجأة كل تعبير عن وجه الكاتب ماعدا الحيرة العميقة وهو يتأرجح مكانه لحظة ثم ترنح وأفلتت منه العصا وهوى إلى الأرض بين ذهول المارة. جرى كمال ومصطفى نحونا من دون أن يتطلعا للخلف. ركبا السيارة بسرعة فانطلق بها راشد بعينين محتقنتين يشق بالقوة والتهور طريقا في زحام الشوارع.

توقفنا بعيدا في أحد الأزقة ومكثنا دقائق ونحن نرتجف من دون أن ينطق أحدنا بحرف. اتفقنا بأقل الكلمات على أن نفترق ويعود كل منا إلى بيته بمفرده، ونلتقى عصر الغد في المقهى علنا ليكون ذلك قرينة براءة.

رجعت إلى البيت لا أشعر ببدني ولا حتى بقدمي وهما تدبان على الأرض، كأني هواء يرتعد في هواء. كنت مأخوذا بما حدث وبالحيرة

العميقة على وجه المؤلف. من حقنا أن نحمي حلمنا لكن هل أن ما قمنا به صواب؟ لم أكن واثقا من هذا. لم أنعس دقيقة طوال الليل حتى لاحت خيوط الفجر على شباك حجرتي فسقطت في خطفات نوم مهلكة.

خرجت من بيتي عصر اليوم التالي أجرجر بقدمي بدني المهدود قاصدا المقهى، وأنا أشعر أني محموم. مشيت حتى بلغت الميدان وانعطفت إلى زقاق ينتهي عند السوق. عند مدخل الشارع الكبير شاهدت الأصدقاء الأربعة بعيدا جالسين يدخنون نرجيلة. قبل أن أتقدم خطوة انشقت الأرض عن قوة من الشرطة أمسكت بالأربعة ودفعتهم إلى داخل سيارة قريبة. شلتني المفاجأة والخوف. تجمدت مكاني لحظة أوليت بعدها ظهري للمقهي. سرت ببطء حتى أول كشك سجائر فتوقفت أشتري قداحة وأنا أتنصت لزمجرة سيارة الشرطة من خلفي وهي تبتعد. أحصيت ما في جيبي من نقود. كان معي نحو مئة جنيه. لم أرجع إلى بيتي. تجولت في وسط البلد ثم سافرت في الليل على أول قطار إلى الفيوم قاصدا منزل أحد أقاربنا.

بعد محاكمة سريعة صدر حكم بسجن كمال وراشد ومجدي خمسة عشر عاما لكل منهم، وحكم غيابي بسجني مدة مماثلة، وحكم آخر بإعدام مصطفى. كتبت الصحف في ذلك كثيرا، ونشرت صورة لمصطفى قبل تنفيذ الحكم بيوم وهو داخل الزنزانة مرتميا على طرف سرير صامتا كالموتي. تركت الفيوم في اليوم ذاته إلى الصعيد ونمت أيامي الأولى في

مساجد القرى الصغيرة والغيطان حتى وجدت عملا وتمكنت من تزوير بطاقة شخصية فترحت بعدها إلى الجنوب. هناك تعرفت إلى أسرة طيبة تزوجت ابنتها وفتحت محل بيع أدوات كهربائية بمساعدة أهل زوجتي. ثم أنجبت طفلة وجرفتني الحياة بعدها دون أن تخمد في نفسي قلق السنوات الماضية.

صباح اليوم وأنا في المحل قرأت في الصحيفة نبأ خروج كمال وراشد ومجدي غدا من سجن طرة. بخروجهم يسقط الحكم ضدي بالتقادم إلا أن النبأ زلزلني. أغلقت المحل مبكرا واتجهت لبيتي وخاطر واحد يستولي علي أن أستقل قطار الليل لأكون في القاهرة في الفجر فأتجه إلى سجن طرة، و أتوارى خلف شجرة أو جدار. أتطلع إليهم وأحدق إلى وجوههم. ما الذي أريد أن أراه في عيونهم أو أعرفه منها؟ ماحدث لي؟ أم كيف ينبغي لي أن أشعر الآن؟ الندم؟ الانكسار؟ أم مغزى حياتنا التي أهدرت وراء الحلم؟. أم أنه حنين لعاصفة اقتلعتنا من جذورنا؟. شيء ما يدفعني دفعا للسفر والتحديق من بعيد إلى حياتي دون أن أقترب منها.

تعشيت بدون نفس مع زوجتي وابنتي. ذهبت الاثنتان للنوم. جلست وحدي في الشرفة المفتوحة على الخلاء وقد خيم الليل. أتذكر الرواية التي رقدت بصمت على سطح المنضدة حينذاك وأسأل نفسي كيف أصبح الحلم لعنة؟ أم أن الجن الذين سألناهم المشورة كانوا وهم يظهرون التأييد

يستهزءون بنا؟ أم أننا كنا نقاتل دفاعا عن أنفسنا ؟. ليتني أدري. هل تمدني وقفتي غدا عند بوابة السجن بالجواب؟.

تتقد السماء الشاسعة فوقي بالنجوم. وفي هذا الصمت أشعر أن كل ما أريده الآن العزلة العميقة، أن أطفو بين ذرات الكون كأني لا شيء، فلا يراني أحد.

***

صعيدي

كانوا خمسة عشر رجلا. يهلون كل صباح من وراء سوق الخضار. يدبون في جلابيبهم بوجوه لوحتها الشمس، ورؤوس مرفوعة، تتأرجح بيد كل منهم عدة البناء من قادوم وإزميل وسكين ملفوفة بخرقة. هاجروا إلى العاصمة من الصعيد، من قرى المنيا، وسوهاج، وأسيوط. استأجروا معا وراء سوق صقر قريش شقة من ثلاث حجرات وصالة من دون قطعة أثاث واحدة، فقط صنابير المياه والدورة وحمام ضيق، ومسامير غرزت في كل جدار يعلقون عليها جلابيبهم في الليل. استأجروها ب ٤٥٠ جنيها في الشهر يدفع كل واحد ثلاثين جنيها، يثوبون إليها بعد يوم شاق من هدم الحوائط ورفع أجولة الطوب والرفش والصعود والهبوط على السقالات فلا تبقي في أبدانهم عضلة لا ترتجف. يتوافدون على الشقة فرادي. يغتسلون من تراب الشغل. يفترشون الأرض ويضعون أمامهم أقراص الطعمية وصحون الفول المدمس، يأكلون عادة في صمت. يبدأون الكلام فقط حين يشربون الشاي الغامق مع السيجارة. يسترخون ويسأل أحدهم "أرسلت الفلوس لأمك؟"، أو "الولد الصغير تحسنت صحته؟" لا يتكلمون عن حنينهم لنسائهم فقد نشأوا منذ الصغر على أن "الأدب زينة الرجال" لكن تحل لحظة تخيم فيها الكآبة والتعب والصمت، فيمد أحدهم كفيه في الفراغ ويصفق فجأة منشدا "دا أنا وردة نادية وتشبكها.. شوف حالك لما تملكها.. دلوقت حامي عليك شوكها..

وحبيبي"، فيؤرجح الآخرون رؤوسهم، ويرددون بأصوات تتوهج من جمرة الشوق "حبيبي أحيانا نادرة يتشاجر اثنان منهما ويصل الأمر إلى حد عنيف فيخرجون معا إلى مقهى مجاورة لتهدئة الخواطر وسرعان ما يعودون، فلابد من إدخار كل قرش. وأخيرا يرتمى كل خمسة منهم في حجرة، متجاورين، منهكين، يشخرون. مبكرا في الصباح يخرجون من جديد بهامات مرفوعه إلى الشارع الرئيسي. يقرفصون على الرصيف في صف واحد يواجه الشارع، مثل خمسة عشر فما جائعا وعنيدا، يثبت كل منهم حدائده أمام بصره، ويرتفع الإزميل من قلب الحدائد، يبرق طرفه المسنون تحت الشمس كأنه استماتة السهم الأخير لدي مقاتل مرير.

اليوم، كان الجو حارا والهواء حاميا وهم على الرصيف ينفثون دخان سجائرهم بصبر ورقابهم وعيونهم تتلفت بحثا عن زبون. تتسارع دقات قلوبهم من العطش والشمس. فجأة تمهلت سيارة زرقاء وتوقفت أمامهم وخرج منها رجل في الأربعين. نهضوا جميعا دفعة واحدة كمن لسعته نار يهرولون في جلابيبهم، متدافعين نحوه، تحلقوه يتصايحون "أمرك يابيه. نقل موبيليا. هد حائط. رفع أنقاض. بناء. محارة. بياض قال وهو يحدق فيهم إن لديه سور حديقة ويلزمه نفر واحد فقط لهدمه. عندما يحتاج الشغل لأكثر من عامل فإنهم عادة ما يلوحون بقبضاتهم ويعرض كل منهم سعرا أرخص. هذا هو قانون الصراع. لكنهم هذه المرة حين سمعوا "نفر واحد" تراجعوا قليلا وأفسحوا فرجة صغيرة بين أكتافهم لجمال ليشق

طريقه إلى الزبون، لأنه أصغرهم سنا و لم يحظ بعمل منذ أسبوع. في المقعد الخلفي من السيارة كانت تجلس طفلة في العاشرة، لمحت جمال، فأشارت إليه بأصبعها وهي تصيح في والدها "بابا.. خذ هذا" تأمله الرجل وأومأ إليه أن يركب إلى جواره. ركب وربطة الشغل بيده. اندفع الرجل بالسيارة إلى الأمام يتخلص من الحشد، وجمال بجواره صامت يترنح رأسه من الصهد والجوع. وقبل أن ينعطف الرجل إلى شارع جانبي تنحنح جمال يسأل "الشغل إيه يابيه؟" أجابه الرجل "أنا بيضت الشقة عندي وترك العمال بقع الدهان على الأرض في الصالة والحجرات. تحتاج تنظيف" التفت جمال بجانب وجهه ناحية الرجل مستفسرا "مسح وكنس يعني؟" قال الرجل "نعم ترنح رأس جمال ثم شد رقبته لأعلى واكتسبت ملامحه صرامة قائلا بصوت منهك "الصعايدة ما يشتغلوش في المسح يابيه" حاول الرجل إقناعه قائلا "سأعطيك مبلغا محترما"، فأجابه "مش حكاية فلوس. الصعايدة ما يشتغلوش في المسح" لمس الرجل إصراره فعاد به حيث وجده. هناك هبط جمال من السيارة ثم أحنى جسمه على حافة زجاج النافذة وأشار إلى زجاجة ماء قرب الرجل وقال له "ممكن بج ميه؟"

***

واجب

دهش عزت حين علم من صراف الخزانة أن إبراهيم المتغيب عن العمل منذ أسبوعين يعاني من فشل كلوي ويرقد في بيته. استوثق من الصراف "إبراهيم؟ الشاب النحيف من شئون العاملين؟" أرجح الصراف رأسه يمينا ويسارا تعبيرا عن الأسف "هو بعينه أبو خليل المحترم الذي لم يعلو صوته يوما، و لم نسمع منه سوى "صباح النور ويوم سعيد"!

وصل إلى البيت. أخبر سنية زوجته وهو يخلع بنطلونه بأن ابراهيم يبحث عن كلي. دقت صدرها بيدها "يا لهوي! إبراهيم؟ الذي زارنا بصينية البسبوسة؟ المؤدب؟!" قال "نعم. سأنام قليلا و أذهب لأزوره، حالته صعبة كما يقولون ولابد أن أطمئن عليه" أيدته وهي تغطيه بملاءة خفيفة "واجب"

بعد المغرب كان يقف أمام باب شقة إبراهيم يدق الجرس. فتحت له بنت نحيفة في نحو العاشرة. رفعت إليه عينين واسعتين وبدون أن تقول شيئا أعطته ظهرها ومشت أمامه بصندل رجالي ضخم ليس لها. تبعها عبر الصالة إلى حجرة الصالون بدون أن يسمع صوتا في الشقة. تركته البنت في الصالون ومشت إلى الداخل.

أحس بجو الحجرة مكتوما. الشباك مقفول. نور ضعيف من لامبة وحيدة. على سطح ترابيزة أمامه رقدت لفة قطن طبي. بعد قليل دخل

إبراهيم وابنته تمسك به من كوعه إلى أن أجلسته. قربت عينيها الواسعتين من وجهه تحدق به. قعدت على حافة مقعد بين والدها والضيف.

قال مواسيا بصدق "ألف سلامة يا أبو خليل. بعد الـــشر أجابـــه إبراهيم بوجه غيبه الشحوب "كثر خيرك يا أفندم"

تساءل بنبرة تعجب:

- تحتاج أي شيء أنا تحت أمرك؟ لكن كيف حدث هذا؟ الفشل الكلوي لا يمكن أن يظهر فجأة من الباب للطاق؟ لابد أن الحكاية من زمن؟

- نعم. كنت أغسل كلي من ثلاث سنوات يا أفندم.

- والله ما أعرف. عمرك ما قلت لأحد! نحن زملاء. كان لازم تقول لنا. كان لازم أقول، لكن كل واحد به ما يكفيه من الهموم ياأستاذ عزت.

- وبم ينصح الأطباء؟

مطت البنت رقبتها ترهف السمع.

تنهد إبراهيم متعبا:

- في حالتي هذه لاينفع سوى زرع كلي جديدة. ومؤقتا اتباع نظام أكل بدون اللحم الدسم والأطعمة ذات الألياف.

- ألف سلامة. أية أطعمة هذه؟

- مثلا المانجو. الطماطم.

- الطماطم؟! ياهار أبيض! وأنا كنت أتسلى بها طوال اليـــوم!!. قالهـــا عزت وأخرج قلما من جيب القميص وهو يزووم "ممم. الطماطم والتفت إلى منضدة على يمينه. انتزع ورقة من كراسة سجل عليهـــا الممنوعات.

- ياأبو خليل أي شيء تحتاجه قل لي. سألتك ياسيدي لأنه كان عندي نوبة وجعتني فيها كليتي قوي. ألم فظيع يا أبو خليل! على ما أذكـــر الدكتور أيامها أعطاني دواء فوار. علبة بنية صغيرة لكن طويلة شوية. أظن كانت بستة جنيهات. لاء. الكذب خيبة. بسبعة جنيه وربـــع. وأولاد الحلال قالوا لي أيامها أنقع شعير في الماء كل يوم بالليل وأشربه على الريق. الشعير يساعد؟

جفف إبراهيم حبيبات عرق على طرف أنفه:

- الشعير حلو. آه. ملعقتين حلو.

ضحك عزت:

- ملعقتين؟! يا أخي الواحد ينقع إنشاء الله أربع ملاعق. الشعير مـــاليء الدنيا.

قرب رأسه من وجه إبراهيم مبحلقا فيه:

تحتاج أي شيء قل لي. بالشرف؟ لكن أنت يا أبوخليل، أنت، بما أن أطباء كثيرين كشفوا عليك، تقدر تعرف إن كانت كلية إنسان ما سليمة أم لا؟

- ممكن طبعا

نهض عزت واقفا وأعطى ظهره لإبراهيم. رفع الجاكتة والقميص والفانلة:

طيب شوف. ربنا يسترك يا أبو خليل. بص. هي الكلية اليمين. لاء. دقيقة واحدة. دقيقة. أنا لامؤاخذة لما كنت أقف أمام باب حجرة النوم وظهري للمدام كانت الكلية التي على الشمال. لا صبرك. لاء. من ناحيتك أنت تبقى اليمين.

مر إبراهيم بطرقات خفيفة من يده على موضع الكليتين وسأل بصوت واهن ضعيف:

شعرت بألم؟

- أبدا. لا شيء تقريبا.

- يبقى سليمة بإذن الله.

اعتدل عزت ناحية إبراهيم. حشر الفانلة والقميص داخل البنطلون. انتبه لوجود البنت فقرصها من خدها مبتسما لإبراهيم:

- ربنا يخليها لك يا أبو خليل.

عاد إلى الكرسي وألقى برأسه للوراء مغمضا عينيه.

فزت البنت من مكانها تتوسل لوالدها:

- الشوربة تبرد يا بابا!

ارتعشت على وجه إبراهيم ابتسامة شاحبة.

عاد عزت للحديث:

- يا أخي حاجة عجيبة. أنت كشفت بنفسك، ليس بي شيء والحمد لله. لكن يا أخي أتوهم العياء ما إن تفتح سيرة مرض! غريبة.. أليس كذلك؟! يمكن حالة نفسية؟ الان مثلا أشعر بدوخة؟!. هز عزت رأسه يختبر مدى دوخها. قال:

- وأحس بهبوط. تصور؟! — ونظر للبنت - والنبي ياعروسة كوب ماء بسكر لعمك عزت.

نهضت البنت. عقدت يديها بغضب عند بطنها. اتجهت للمطبخ وعادت بقدح ناولته له.

قال عزت:

- التوهم حاجة صعبة فعلا يا أبوخليل. ألقى عندك مسكن؟

قال إبراهيم وهو يتنفس بصعوبة:

- المسكنات التي عندي للحالات الشديدة.

- الحمد لله. الآن أفضل. راحت الدوخة. تقريبا.

نهض عزت ودس الورقة التي معه في جيبه:

- بحاجة لأي شيء؟ قل. لكن بالنسبة للشعير أمشيه على طول؟

- نعم. خلي الشعير على طول.

بسط عزت يده لمصافحة إبراهيم:

كله على الله. أمر عليك بعد أسبوع نشوف الحالة. ولو أني والله أعلم أنه توهم!

أحكم إبراهيم شالا صوفيا حول خصره. مد كفا مرتعشة. غمغم بصوت منهك:

- مر خلال اسبوع..

انحنى عزت عليه يستوضح الكلام "خلال أسبوع؟" استجمع إبراهيم قواه بالكاد متمتما "نعم.. أسبوع"

- بإذن الله. سآتي لا تقلق. والله سآتي لا تحمل هما.

سار عزت والبنت وراءه تشيعه حتى باب الشقة. فتحت الباب لكنها لم تنتظر حتى تغلقه. استدارت مسرعة إلى ترابيزة السفرة في الصالة واختطفت من فوقها صحنا غويطا وهرولت والشوربة ترتج بين يديها والدها. تابعها عزت ببصره. استدار يهبط على السلالم قائلا لنفسه "اطمأننت عليه. واجب"

***

الكاتب

د. أحمد الخميسي مواليد القاهرة ١٩٤٨ قاص وكاتب صحفي.

نشر أولى قصصه "الشوق" في أبريل ١٩٦٥ بمجلة القصة التي تـــرأس تحريرها أ. محمود تيمور، ثم قدمه يوسف إدريس بمجلة الكاتـــب في ديسمبر ١٩٦٦

- صدرت له أول مجموعة قصصية مشتركة عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربي بعنوان "الأحلام، الطيور، الكرنفال"

من كتبه

"كان بكاؤك في الحلم مريرا" مجموعة قصصية مترجمة عن الروســـية دار المستقبل العربي بالقاهرة عام ١٩٨٥

"قصص وقصائد للأطفال" مترجمة عن الروسية - اتحاد الكتاب العرب دمشق عام ١٩٩٨

"نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق" تأليف وترجمة دار الثقافة ١٩٨٩ القاهرة.

"موسكو تعرف الدموع" مجموعة دراسات ومقالات – كتاب الأهالي القاهرة ١٩٩١.

"أسرار المباحثات السوفيتية العراقية في أزمة الخليج" بريماكوف – ترجمة وتقديم – القاهرة – مكتبة مدبولي – ١٩٩١

- "المسألة اليهودية" للأديب العالمي دوستويفسكي - مجلة أدب ونقد – العدد رقم ٦٩ – مايو ١٩٩١ – القاهرة – وأعادت مجلة "زرقاء اليمامة" عام ١٩٩٦ نشر نفس الترجمة.

"حرب الشيشان" رحلة إلى الجبال – دار المحروسة – القاهرة ١٩٩٦

"نساء الكرملين القاهرة مكتبة مدبولي ١٩٩٧

"رائحة الخبز مجموعة قصص مترجمة عن هيئة قصور الثقافة ديسمبر ١٩٩٩

"قطعة ليل مجموعة قصصية – القاهرة – ميريت ٤ ٢

- "الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين" –الهلالي – القاهرة ٠٨ ٢ وأعيدت طباعته بهيئة الكتاب في ٢٠١٢

- "كناري" مجموعة قصصية – كتاب اليوم – أخبار اليوم – ديسمبر ٢ – فازت بجائزة ساويرس الثقافية عن أفضل مجموعة قصصية فرع كبار الأدباء ١١ ٢

- "قطعة ليل –طبعة ثانية – الكتب خان للنشر والتوزيع – القاهرة ٢

"نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي" – طبعة ثانية – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – ديسمبر ٢٠١١

"عيون التحرير في الأدب والسياسة" – دار كيان – القاهرة – فبراير ٢ ١٢

- مسرحية "الجبل" أبريل ١٢ ٢ – هيئة قصور الثقافة – فازت بجائزة المهندس نبيل طعمة بسوريا - المركز الثاني ١٢ ٢

"مجمل تاريخ الأدب الروسي – قصور الثقافة – مارس ١٢ ٢ – قدمه وأشرف على تحريره

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
٣/١ شارع اللاسلكي – المعادي الجديدة – ١١٧٤٢ – القاهرة.
تليفون:
اليكتروني:info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

ماذج عالية لقدرات كاتب من كتاب القصة العربية الكبار، فهو كاتب
ى الرؤية ، التي تمزج - برهافة ورصانة معا - بين الإنساني الخاص
مجنح والواقعية الدافئة ، سبيكة مشغولة بلغة يفتنني فيها هذا
ته السوية القوية نابضة ومشعة .. إنه كاتب كبير ينهض على روح
ة تنطلق من المحلي إلى العالمي ، ودراية نادرة بأرفع نماذج الأدب
ة قصص كاتب كبير جديرة بكل احتفاء .

محمد المخزنجي القاص و الكاتب

لحياة الثقافية والأدبية تعرفه جيدا ، فهو دارس للأدب وفنان وواحد
كتابة الأدبية . كان قد أصدر في مطلع شبابه (١٩٦٧) عام النكسة
لك عددا كبيرا من الكتب والمترجمات التي تجمع بين الفن والدراسة
صية نادرة باسم قطعة ليل عام ٢٠٠٤ ، استعرض فيها قدراته ككاتب
النافذ المشحون بالصور ، ثم أصدر مجموعته كناري عام ٢٠١٠ . وقد
والعمل الخالد لعبقري القصة المصرية يوسف إدريس " أرخص ليالي"
ن " كناري " أجمل مجموعة قصصية بعد أرخص ليالي التي - إلي جانب
أوبآخر بثورة ١٩٥٢ ، كما ترتبط " كناري " بدون افتعال وتزيد بالأجواء
ر ٢٠١١ . وأهم ما في العالم القصصي لأحمد الخميسي البلاغة
ل الكاتب والعناية الفائقة بشكل القصة وبنائها بما يكشف عن عمق
كاتب استثنائي يضع القارئ أمام أخطر وأهم القضايا السياسية
طابية . إنه يأخذ كلماته بقدر نادر من الجدية ويشتغل على جمله
ل في الذهب الغالي أو كمحارب يدافع عن أرض الوطن . إنه صاحب
أدب وصاحب حس جمالي لايرضى إلا عندما تشف اللغة وتستقر على
ار قصاص وكاتب نادر .

علاء الديب الناقد والروائي